



مؤرخ الصدام الحضاري الأول بين الشرق والغرب
في العصر الحديث

إعداد
الدكتور حسين عاصي
أستاذ في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

أعلام مؤرخي العرب والإسلام

عبد الرحمن الجبرتي

مؤرخ الصدام الحضاري الأول بين الشرق والغرب في العصر الحديث

إعداد

د. حسين عاصي

أستاذ في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يتتمي عبد الرحمن الجبرتي إلى طائفة المؤرخين المسلمين من كتّاب الحوليات الذين خلفوا لنا تراثاً ينم عن مناهجهم وأساليب تفكيرهم ومستوى ثقافتهم. ولقد عاش في الوقت الذي خيّم فيه الركود على الوطن العربي وسجّل في كتابه « عجائب الآثار » تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، وقدّم لنا صورة عن مصر لا تختلف في خطوطها العريضة عن صورة الحياة في أية حاضرة عربية أخرى، إذ ان المقومات التي قامت عليها حياة المجتمعات تكاد تكون واحدة، والأنظمة التي وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة. هذا إلى أن العالم العربي والاسلامي خلال الفترة التي دوّنها الجبرتي كان يمر بمرحلة اضمحلال عامة نتيجة لظروف تاريخية واقتصادية وسياسية معروفة. حينئذ كانت الجذوة الخلاقة التي دفعت المسلمين الأُوَل إلى ارتياد وتطوير العلوم والآداب والفنون والفلسفة والفقه الديني والتشريع والجغرافية، قد انطفأت، مما أفسح المجال للاهتمام بالشكليات وبظواهر العلم. وهكذا أصبح المجتمع الاسلامي ـ العربي بوجه عام مستكيناً لحالة تبلد مقرون بالغيبيات

الباعثة على السلبية ، ولا يلقي بالاً للإشعاعات المنبعثة من أوروبا ، وهي اشعاعات تميزت بالحيوية ، وكانت تنمو وتتسع باطراد . وكان حيزّ الدراسات في الأزهر الذي تخرج منه الجبرتي ضيقاً نسبياً ، إذ اقتصر على العلوم المتصلة باللغة العربية ، بما في ذلك البلاغة والنثر والعلوم الدينية والفقه والمنطق ومبادىء الرياضيات . ولما كان العالم العربي الاسلامي خلال فترة الركود والعزلة يكاد يكون منقطع الصلة بأوروبا الغربية ، فإنه حافظ على تلك المشخصات الوسيطة التي كانت في طريقها إلى الانحلال في الغرب ، كالاعتقاد في التنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر، وساعدت الاساليب الشعبية والشعوذة التي كان يمارسها المتصوفة على شدة انتشار السحر ، مما أدى من الناحية العملية إلى اسكات كل أصوات النقد والمعارضة .

ومن الطبيعي أن تتدهور الكتابة التاريخية ، خاصة وأن معاصري الجبرتي كانوا يعتبرون التاريخ من « شغل البطّالين ، وأساطير الأولين » ، ويسجل الجبرتي نفسه أن من أسباب تدهور الكتابة التاريخية في أيامه تسرب الكتب التاريخية من البلاد : « فإنّا لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء « مدشته » بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدي المصحفين ، وباعها القومة والمباشرون ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب ، وأخذ

الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم .» حتى أن بعض من كتب عن الجبرتي وتاريخه أبدى دهشته لظهور الجبرتي فجأة كمؤرخ عملاقْ في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . لكن الأمر الذي يدعو للعجب حقاً ألاّ يظهر الجبرتي ويكتب ما كتب على هذا المستوى العالي من الدقة والتحري والافاضة في تلك الفترة أو المنعطف التاريخي الذي كانت تجتازه مصر في ذلك الوقت ، حيث توالت الأحداث يقفو بعضها بعضاً في سرعة متلاحقة منذ أن اشتدت الخصومات بين البيوت المملوكية الكبيرة ومحاولة الدولة العثمانية استعادة سيطرتها على مصر ، حتى نزول الحملة الفرنسية أرض مصر عام ١٧٩٨ م ، ثم خروجها بعد وصول حملة انكليزية وأخرى عثمانية ، وما تلا ذلك من أحداث حتى تولي محمد علي حكم مصر عام ١٨٠٥ م . والسنوات الأولى من حكمه بما امتلأت به من حوادث جسام كنزول الحملة الانكليزية على مصر عام ١٨٠٧ م ، ومذبحة المماليك ، وبدء الحروب الوهابية عام ١٨١١ ، وإلغاء نظام الالتزام ، وبدء تطبيق سياسة الاحتكار وغيرها . وهكذا اشتد نبض الحياة المصرية وايقاعها في تلك الفترة الحافلة بالاحداث بحيث كان لا يمكن أن تمر دون أن يظهر من يتصدى لتتبعها وتسجيلها وربطها بعضها ببعض ، حتى يستوي منها كتاب كامل في التاريخ متكامل الحلقات على نحو ما ظهر عليه كتاب « عجائب الآثار في التراجم والآثار » .

الفصل الأول
عصر الجبرتي

أولاً : الأوضاع السياسية :

عاصر الجبرتي خلال حياته التي امتدت سبعين سنة (١٧٥٤ ـ ١٨٢٤ م) النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر . وقد شهدت مصر خلال هذه الفترة أحداثاً ضخمة أخرجتها من عصر ووضعتها على عتبة عصر جديد، شهدت انحلال النظام العثماني المملوكي ، ثم شهدت حكم الفرنسيين لها نحو ثلاث سنوات ، ثم شهدت محاولة النظام العثماني المملوكي العودة إليها من جديد ، ثم الاجهاز عليه تماماً على يد محمد علي . وكان هذا الاجهاز ممهداً لبناء نظام جديد .

١ ـ النظام العثماني المملوكي : بعد معركتي مرج دابق ١٥١٦ م ، والريدانية ١٥١٧ م اللتين انتصر فيهما الاتراك العثمانيون على المماليك تغيرت الوضعية الدولية لمصر . فأصبحت مجرد ولاية من ولايات السلطنة العثمانية ، كما انتقلت السيادة من القاهرة إلى القسطنطينية . لكن دخول

العثمانيين مصر لم يقضِ على أمراء المماليك ، بل تحالف السيد الجديد معهم بعد أن أنزلهم عن مرتبتهم ، واستعان بهم كأدوات له ، وكجزء من نظامه لحكم البلاد . وهكذا أصبح أول والٍ عثماني على مصر من البكوات المماليك[1] وهو خاير بك ، الذي كان مع زميله جان بردي الغزالي ، قد انفصل عن السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، في معركة مرج دابق ، والتحق بمعسكر السلطان العثماني سليم إبان احتدام المعركة . وقد كافأ السلطان أولهما بتعيينه حاكماً على مصر ، وثانيهما بتعيينه والياً على دمشق . وبينما أخلص الأول للسلطنة وبقي أميناً لعهدها ، أعلن الثاني ثورته عليها في دمشق، ولكنه مُنِيَ بالفشل وعوقب بالقتل .

وبعد وفاة خاير بك ، عهد العثمانيون بولاية مصر إلى باشوات أتراك ، غير أن المماليك حصلوا على منصبي شيخ البلد[2]

(١) كانت البكوية أرفع منصب يتطلع إليه أكثر المماليك طموحاً، والبكوات هم حكام الأقاليم وعددهم أربعة وعشرون يعينهم الوالي، ممثل السلطان في مصر، في حفل خاص من بين قواد الفرق العسكرية (الوجاقات)، ومن بين المماليك أثناء القرن الثامن عشر.

(٢) كان منصب شيخ البلد محط تطلعات جميع البكوات، وصاحبه كبير البكوات، وقد تحولت اختصاصاته مع الزمن إلى نوع من الطغيان فهو يسيطر على أكبر نصيب من الأموال والضرائب التي يدفع جزء منها لرواتب الجند، وآخر يدخل إلى خزانة السلطان، فيما يتصرف شيخ البلد وأعوانه فيما يتبقى =

وأمير الحج[1] . كما كان ديوان مصر مكوناً من بكوات المماليك . وتدريجياً أمسى نفوذهم في تعاظم مستمر حتى سيطروا على الأمور سيطرة تامة منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وأصبحوا الحكام الفعليين ، فيما أصبح الباشا العثماني مسلوب الإرادة . وهكذا قام النظام الذي ارساه العثمانيون لحكم مصر على أساس تقسيم السلطة بين ثلاثة قوى : الوالي ، وضباط الحامية العسكرية (الاوجاقات) ، والمماليك . وكان هذا أساساً لنجاحهم في الاحتفاظ بمصر ولاية عثمانية حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كما ساعد على استمرار هذا الحكم صلات التضامن المعنوي والديني ، رغم تميزه بالطبقية الاجتماعية وسيادة الروح الارستقراطية ، ووجود تعارض واضح في المصالح المادية لكل من الحاكم والمحكوم .

وظل نظام الحكم في مصر العثمانية يسير طبقاً لهذه الاسس التي ذكرنا طوال القرن السادس عشر والجزء الأكبر من القرن السابع عشر . وكان معنى هذا أن حاكم مصر هو الباشا أو الوالي

= بعد ذلك.

(١) كان هناك شخصان يتمتعان بلقب أمير الحج في الدولة العثمانية: الباشا، والي دمشق الذي كان يقود قافلة الحج من الشام إلى الحجاز، وأمير الحج المصري، الذي كان أحد البكوات ويقود قافلة الحج التي كانت تتجمع في القاهرة من حجاج مصر وبلاد المغرب.

وإن كان يحكمها باسم السلطان ، تعاونه في ذلك بقية السلطات الموجودة . حقيقة أن هذه الفترة قد شهدت كثيراً من حركات التمرد ، ولكنها شهدت كذلك محاولات الباشوات للقضاء عليها . وكان الولاة ينجحون في بعض الحالات في السيطرة على الموقف ، فيما كان المتمردون يصلون في حالات كثيرة أخرى إلى التخلص من الباشا ، بقتله أو بعزله ، فتتغيّر علاقة القوى الحاكمة في مصر ببعضها من الناحية الفعلية ، وإن لم يكن ذلك من الناحية القانونية . أما ابتداء من الثلث الأخير من القرن السابع عشر فقد بدأت سلطة الوالي تقل وتضعف بالتدريج . وإن احتفظ قانوناً بوضعيته ، واختصاصاته ، ووظيفته ومخصصاته ، ومرت السلطة إلى أيدي عدد من بكوات المماليك أو من قادة الأوجاقات العسكرية .

وقد ساعدت الأوضاع الموجودة في مصر وفي منطقة الشرق الأدنى عند منتصف القرن الثامن عشر على ظهور أحد بكوات المماليك في مصر وهو علي بك الكبير الذي توصل أولاً إلى شغل منصب شيخ البلد وما لبث أن استفاد من الظروف الدولية سنة ١٧٦٨ م ونشوب الحرب الروسية العثمانية ، فرأى الفرصة مؤاتية كي يبدأ حركته الانفصالية بمصر ، ويتخلص من الباشا العثماني ، كي ينفرد بالسلطة كاملة في البلاد . وقد نجح في استصدار أمر من الديوان بعزل الباشا ، تولى

بعده القائمقامية عوضاً عنه[1] . وظل كذلك حتى آخر عهده معتمداً على قوة اتباعه من المماليك . وأمن له تحالفه مع ظاهر العمر حاكم عكا ، جناحه من جهة سوريا . وما لبث أن ضم الحجاز وأصبح سيد سوريا ، وكان هذا أقصى ما وصل إليه من نفوذ[2] .

واعتباراً من حزيران ١٧٧١ م بدأ نجم علي بك الكبير بالأفول بعد أن انقلب عليه صنيعته محمد أبو الذهب[3] ، وانضم إلى جبهة السلطان العثماني . وعاد من الشام إلى مصر بشكل سريع . وبعد معارك مع سيده القديم استولى على الحكم أثر معركة موقعة الصالحية في نيسان ١٧٧٣ م[4] وأرسل يبشر الباب العالي بذلك .

بعد وفاة محمد أبو الذهب شهدت مصر مرحلة من التناحر بين قادة المماليك واقتسم السلطة ثلاثة من اتباعه ، فكانت مشيخة البلد لابراهيم بك ، والدفترداريه لمراد بك ، فيما تسلم يوسف بك إمرة الحج ، وتمثل الفترة الممتدة ما بين

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣٠٨/١، جلال يحيى: مصر الحديثة ٢٤٣.
(٢) جلال يحيى: مصر الحديثة ص ٢٥٣ ـ ٢٥٧.
(٣) كان محمد أبو الذهب على رأس الحملة التي وجهها علي بك الكبير لانهاء الوجود العثماني في سوريا انظر: الجبرتي: عجائب الآثار ٣٦٥/١، جلال يحيى: مصر الحديثة ٢٦١.
(٤) محمد رفعت رمضان: علي بك الكبير ١٩٦ ـ ١٩٧.

١٧٨٠ ـ ١٧٨٦ خليطاً من المؤامرات والانقلابات المسرحية ، وأحداث الاغتيال ، وتغيير المواجهة أو الخيانة في سبيل الوصول إلى السلطة أو المحافظة على نوع من الولاء ، أو الحصول على بعض الامتيازات . وكان قطبا الصراع مراد بك وابراهيم بك . كما شهدت تدهوراً في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية نتيجة للحروب المستمرة والفتن والاضطرابات[١] ، مع ما صاحب ذلك من زيادة المظالم وانتشار الفوضى ، وعدم اعتبار سلطة ممثل السلطان في مصر . كل هذه الأسباب حملت السلطان عبد الحميد الأول على إعادة سلطته الفعلية في ولاية مصر ، فأرسل حملة عسكرية كبيرة بقيادة حسن باشا قبطان الاسطول العثماني . وعند وصولها فر ابراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد[٢] لكن الحملة لم تتوصل إلى نتيجة حاسمة ، واضطر قائدها إلى العودة مصطحباً بعض الرهائن من المماليك ، بعد أن استدعته الدولة أثر تجدد الحرب مع روسيا بعد هجومها على القرم واستيلائها على بقيتها . واصدرت الدولة العثمانية عفواً عن ابراهيم بك ومراد بك مع تحريم دخولهما إلى القاهرة[٣] .

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٥٨٠/١ ـ ٥٨٤ (احداث شهر ذي الحجة ١١٩٨ هـ).

(٢) الجبرتي: عجائب ٦١٩/١ ـ ٦٣١ .

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار ٣١/٢ ـ ٣٢، جلال يحيى: مصر الحديثة ٢٨٧ ـ ٢٩٥ .

وما لبث الصراع أن تجدد بين الرجلين وبين اسماعيل بك الكبير الذي آلت إليه مشيخة البلد . وصار بيده العقد والحل ، والإبرام والنقض[١] ، وتكاثرت المصائب على البلاد . وظهر وباء الطاعون[٢] عام ١٨٩١ في مصر الذي ذهب ضحيته اسماعيل بك ، كما عاد ابراهيم بك ومراد بك إلى القاهرة بعد وصول مرسوم سلطاني بالعفو والرضا عنهما[٣] .

وفي الوقت الذي كان فيه امراء المماليك فرحين بعودة سطوتهم وسلطانهم على البلاد ، كانت مصر تجتاز فترة من الشدة واختفاء الغلال وارتفاع أثمانها ، وانتشار المجاعة ، فيما الامراء سادرون في جورهم ولا يفكرون إلاّ بأنفسهم ، الأمر الذي جعل المشايخ والعلماء والشعب يصعدون من مقاومتهم للظلم . وتزعم الشيخ الشرقاوي الجمهور في حركته ضد الضرائب التي استحدثها المماليك . وشعر هؤلاء بهذا الموقف الصلب الذي اتخذه العلماء مما قد يؤدي إلى زيادة اهتزاز حكمهم الذي كان يعاني من استشراء الفتن بين جماعاتهم ، فمالوا إلى المهادنة وأظهروا أمام المشايخ أنهم تابوا ورجعوا عن غيّهم ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم . وقد تم الصلح وكتب القاضي حجة بذلك وقّع عليها الباشا وختمها ابراهيم بك

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ٤٠ .

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ٩٤ ـ ٩٥ .

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ١٤٤ .

ومراد بك[1] . وكان هذا تغييراً كبيراً استتبع ظهور قيادة وطنية تمثلت بالعلماء . لكن هذه القيادة الصاعدة رغم قوتها كانت عاجزة عن مواجهة المماليك المسلحين لمدة طويلة ، فلم يستطيعوا سوى التظاهر ضد المماليك وبقي دورهم مقتصراً على الدفاع والتوسط حيث لم يكن هناك بديل أفضل من حكم المماليك . وبالرغم من شكواهم المريرة لم يكن هناك أي حافز لتغيير هذا الحكم[2] . لكن الهجوم الفرنسي سرعان ما زودهم بالبديل عن المماليك وبالحوافز اللازمة للعمل .

٢ ـ الحملة الفرنسية : حتى نهاية القرن الثامن لم تكن الأقطار العربية ، ومنها مصر ، قد واجهت ضغطاً مباشراً من الاستعمار الأوروبي ، بل كان الضغط موجهاً إلى ولايات السلطنة العثمانية في البلقان ، وكل ما في الأمر أن اهتمام الدول الأوروبية كان مركزاً في الناحية التجارية . ولكن بدخول انكلترا وفرنسا حلبة التنافس الاستعماري في حوض البحر المتوسط أخذ الخطر يحيط بالمنطقة . وقد بدأ هذا الخطر بقدوم الحملة الفرنسية لاحتلال مصر بقيادة الجنرال نابليون بونابرت في الأول من تموز ١٧٩٨ .

ارتبطت أسباب هذه الحملة باسباب النزاع الذي احتدم بين الثورة الفرنسية وملوك أوروبا الذين جزعوا من أن تتسرب

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/١٦٦ ـ ١٦٨.

(٢) جلال يحيى: مصر الحديثة ٣٣٤.

الأفكار الثورية إلى شعوبهم ، ومن أن تتهاوى تيجانهم مع رؤوسهم تحت حد المقصلة ، مثلما جرى للملك لويس السادس عشر ، فألفوا تحالفاً تزعمته النمسا وانكلترا هدد بجيوشه الثورة الفرنسية ومنجزاتها . وكانت انكلترا هي المحرك الأساسي إذ كانت تسعى إلى تأليف حلف جديد ضد الثورة كلما قضي على سابقه ، فرأت حكومة الادارة أن تثأر منها وأن تجبرها على عقد صلح معها بتهديد مستعمراتها في الهند بعد الاستيلاء على مصر التي تكوّن الطريق الامبراطوري إليها . كما تعوض مصر فقدانها لمستعمراتها في أميركا والهند بعد حروب القارة الأوروبية ، وتقوي مركزها الحربي في المتوسط . أضف إلى ذلك سعي نابليون إلى تأسيس امبراطورية له كبيرة تشبه امبراطورية الاسكندر المقدوني ، والذي لقي تشجيعاً لطموحه من تاليران مفوض الشؤون الفرنسية الذي أيد رأي نابليون في وجوب الاستعاضة عن احتلال انكلترا باحتلال مصر ، لحاجة فرنسا إلى مستعمرات غنية قريبة منها . وكان أعضاء حكومة الادارة يتوجسون خيفة من طموحات نابليون السياسية بعد أن ازدادت شعبيته إثر انتصاراته في ايطاليا وارغامه النمسا على عقد الصلح . فأرادوا ابعاده عن باريس خشية أن تساعده الظروف في الاطاحة بالحكومة . وهكذا صدرت الأوامر إلى نابليون بالاستعداد لغزو مصر .

غادرت الحملة الفرنسية ميناء طولون في ١٩ أيار ١٧٩٨ ،

فاستولت في طريقها على جزيرة مالطة وجعلتها قاعدة لتأمين اتصالاتها بالوطن الأم . ثم وصلت إلى الاسكندرية في أول تموز ، وكان أهلها قد علموا بخبرها من الأسطول الانكليزي[1] ، فقاوموها ببسالة ولكنهم لم يستطيعوا دفعها فاحتلت المدينة في ٣ تموز ، ذلك أن المماليك لم يهتموا بتحصينها أو في تهيئة وسائل الدفاع عنها فوقعت فريسة سهلة في أيدي الفرنسيين .

وقد وزع نابليون منذ نزوله إلى البلاد منشوراً على الشعب المصري مطبوعاً باللغة العربية ، افتتحه باسم الله الرحمن الرحيم وببعض الآيات القرآنية ، وضمنه عبارات التودد « مبيناً فيه أنه آت إلى مصر بموافقة السلطان العثماني ورضاه لكي يؤدب المماليك ويزيح عن المصريين نير حكمهم الظالم ، وأنه صديق للمسلمين محب لتقاليدهم . وقد نادى بالمساواة بين السكان ودعاهم إلى نبذ طاعة المماليك لأنه ليس فيهم ما يميزهم عن الشعب المصري »[2] .

ثم أرسل نابليون بعض قطع اسطوله لاحتلال مدينة رشيد في

---

(١) كان الأسطول البريطاني بقيادة الأميرال نلسون يراقب البحر المتوسط حتى يعرف وجهة الأسطول الفرنسي ويشتبك معه ويحطمه، وعندما وصل إلى الاسكندرية كان الأسطول الفرنسي لا يزال في مالطة انظر : الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠ جلال يحيى: مصر الحديثة ٣٤٥.

(٢) أورد الجبرتي نصّ المنشور في عجائب الآثار ٢/ ١٨٢ ـ ١٨٤ وانظر أيضاً ملاحق الكتاب.

طرف خليج ابي قير ، والسير منها إلى القاهرة عن طريق النيل ، وسار هو بجيشه عن طريق الصحراء ، والتقى مع الحملة النيلية عند الرحمانية ، فسارا معاً إلى شبراخيت .

ولما علمت سلطات القاهرة باحتلال الاسكندرية قرر الوالي العثماني ومراد بك وابراهيم بك زعيما المماليك أن يسير مراد بك إلى الاسكندرية وأن يبقى ابراهيم بك في القاهرة للدفاع عنها . وقد تلاقى جيش مراد بك مع الفرنسيين في شبراخيت فهزموه ، فتقهقر إلى أمبابة قرب القاهرة . وقد خرج الشعب المصري لملاقاة الحملة ، لعلمه بضعف المماليك وعجزهم عن مقاومة الفرنسيين . ولكنهم برغم ما أبدوه من ضروب الشجاعة لم يستطيعوا الثبات أمام أسلحة الفرنسيين الحديثة ، ولا سيما وأن المماليك استهانوا بقوة الحملة ولم يعدوا العدة اللازمة لها[1] ، فضلاً عن اهمالهم تسليح الشعب المصري وتهيئته للقتال المنظم . وقد فرّ مراد بك إلى الصعيد ، وابراهيم بك إلى الشرقية ، ومنها إلى سوريا ودخل نابليون القاهرة .

وما لبث الاسطول الانكليزي أن حطم الاسطول الفرنسي في ابي قير ، فأصبح الفرنسيون في مصر كالأسرى بعد أن فقدوا وسيلة اتصالهم بفرنسا . وقد ترتب على نابليون أن يسعى إلى

---

(١) كان المماليك على جانب من اعتداد النفس فلم يكترثوا لتحذيرات الانكليز وزعموا «انه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وانهم يدوسونهم بخيولهم» انظر الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ١٨٥ ـ ١٩٠ .

التلاؤم مع الوضع الجديد ، والاكتفاء بموارد مصر ، فأخذ يرسم الخطط لفرض هيمنته على منابع الثروة المصرية . ولذا بدأ بتقرّب إلى المصريين متظاهراً بحبه لهم ولتقاليدهم وشعائرهم الدينية ، محاولاً إشراك وجهائهم وعلمائهم في الحكم عن طريق الديوان الوطني الذي أنشأه[1] وراح ينظم الادارة ويدرس المشروعات العمرانية والانمائية ، وقد أوعز إلى العلماء الذين رافقوا الحملة بدراسة اقتصاديات مصر وتنميتها . ومع ذلك لم يثق المصريون بالفرنسيين ولم يستسلموا لهم ، بل اعتبروا وجودهم في مصر « بلاءً نازلاً » وزاد في نقمتهم عليهم ، أنهم أخذوا يغالون في فرض الضرائب ، وهدموا بعض المساجد لتوسيع شوارع القاهرة ولتسهيل مرور الجيش وتنقّله ، وراح جنودهم يتحدون التقاليد الاسلامية بشرب المسكرات علناً وغير ذلك من المخالفات الاخلاقية . كما ضج المصريون من أثر الضائقة الاقتصادية الناجمة عن الحصار الانكليزي للشواطىء المصرية ، فأعلنوا ثورتهم الأولى في القاهرة (٢١ تشرين الأول ١٧٩٨) ، وكانت عنيفة عمّت جميع الأحياء في المدينة[2] ، إذ

---

(١) تألف الديوان الأول أو مجلس الحكومة الذي سيحكم القاهرة من تسعة مشايخ، وكانت سلطته استشارية مقيدة بتعهد الأعضاء بعدم القيام بأي عمل يكون موجهاً ضد مصلحة الجيش الفرنسي: انظر: عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ١/ ٩٧، جلال يحيى: ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ مصر الحديثة.

(٢) تفاصيل هذه الثورة في عجائب الآثار ٢/ ٢١٨ ـ ٢٢١ وانظر أيضاً ملاحق الكتـاب.

تجمعت جماهير المصريين في الجوامع وأشرف على تنظيمها لجان ثورية ، ثم انطلقت جماعات جماعات إلى مراكز الفرنسيين وقتلت من فيها من الجنود ، ثم ركزت التحصينات في الشوارع واحتلت أبواب المدينة وقاومت هجمات الجند الفرنسي بكل شجاعة ، إذ كان نابليون خارج المدينة مع فصائل من جيشه فعاد إليها وسلّط مدافعه على الأحياء ، واستعمل الشدة والوحشية في القمع حتى أخمدها . وقد دفعته هذه الثورة إلى تغيير سياسته السابقة في التودد إلى السكان . فبدأ يعامل الشعب بقسوة والغى الديوان الوطني القديم ، واستبدل به ديواناً آخر حرص أن يضم إليه عناصر من الجاليات القاطنة في مصر ، ومن مختلف الطوائف إلى جانب المشايخ والعلماء .

لم يحرك السلطان العثماني ساكناً حتى تدخلت انكلترا بدافع من شعورها بالخطر الفرنسي الذي جاء يهدد امبراطوريتها في الشرق ، وحطمت الاسطول الفرنسي ، فتشجع وقرّر ارسال حملة عسكرية عبر سوريا إلى مصر . فاضطر نابليون إلى اتقاء الخطر بالزحف على سوريا .

وفي ٢ شباط ١٧٩٩ خرج نابليون بقسم من جيشه إلى العريش واستولى في طريقه على غزة ويافا . وارتكب في المدينة الأخيرة مجزرة بشرية عندما أقدم على قتل أربعة آلاف جندي أسير من حاميتها التي استسلمت إليه بشرط الحفاظ على أرواح أفرادها ، بدعوى نفاد المؤن اللازمة لاطعامهم . ثم تقدم نحو

عكا فألقى عليها حصاراً دام شهرين . لكنه أخفق في فتحها ، وعاد إلى القاهرة ليواجه قرب أبي قير حملة عثمانية أخرى أنزلتها السفن البريطانية ، فانتصر عليها انتصاراً غير حاسم ، لكنه يئس من نجاح حملته على مصر ، فلما بلغه ما تعانيه حكومة الادارة من صعوبات بسبب تحالف أوروبي جديد ضدها ، غادر مصر سراً إلى فرنسا وترك القيادة للجنرال كليبر (آب ١٧٩٩ م) .

شعر كليبر بالحرج عندما تألبت عليه جميع الجهات المعادية من مصريين وعثمانيين وإنكليز ومماليك ، ولم تستطع حكومته أن تمده بشيء ، بل استجابت لرغبته في الاذن بتوقيع معاهدة للجلاء عن مصر (معاهدة العريش في كانون الثاني ١٨٠٠ م)[١] قضت بجلاء الفرنسيين بأسلحتهم على سفن إنكليزية ، غير أن بريطانيا لم توافق على المعاهدة واشترطت تسليم الفرنسيين اسلحتهم ومعداتهم كأسرى حرب لقاء السماح لهم بمغادرة مصر ، فغضب كليبر وهاجم جيشاً عثمانياً متجهاً نحو القاهرة وبدّده في موقعة عين شمس ، في ٢٠ آذار ١٨٠٠ م .

اغتنم الشعب المصري خروج كليبر لملاقاة العثمانيين ، ودخول فرقة تركية هربت من موقعة عين شمس إلى القاهرة ، فأعلن ثورته الثانية التي قادها عمر مكرم وغيره من العلماء[٢] .

---

(١) نصوص معاهدة العريش في عجائب الآثار ٢/٣٠٩ ـ ٣١٦.

(٢) تفاصيل ثورة القاهرة الثانية عجائب الآثار ٢/٣٢٣ ـ ٣٤١.

فأوقعت بالفرنسيين خسائر جسيمة ، الأمر الذي حمل كليبر على التنكيل بالمصريين بعد أن أصلى القاهرة ناراً حامية من مدفعيته ، وفرض على السكان أتاوات باهظة ، وبدأ يسير على الخطة نفسها ، لولا أن دهمته طعنة مدية من يد ثائر سوري يدعى سليمان الحلبي أردته قتيلاً في ١٤ حزيران ١٨٠٠ م[١] . وقد اسندت القيادة من بعده إلى الجنرال مينو[٢] .

لم يكن للجنرال مينو الكفاءة التي كانت لسلفيه . فقد احاطت به مصاعب كثيرة وشديدة لم يستطع مواجهتها ، إذ كان عليه أن يواجه جيوش العثمانيين من الشرق ، والانكليز من الشمال والمماليك من الجنوب ، وثورات المصريين في الداخل . ولم يلبث أن هزم في المعارك التي دارت رحاها في الدلتا ، فلم ير بداً من التوقيع على معاهدة التسليم في ٢ أيلول ١٨٠١ م ، التي نصت على جلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، وعودتها إلى الحكم العثماني[٣] .

لم تحقق الحملة أي هدف من أهدفها العسكرية والسياسية فهي لم تسيطر على طريق الهند ، ولم تستطع الاتصال بالمستعمرات البريطانية في الشرق الأقصى لتعمل معها على

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/٣٥٨ ـ ٣٦٠.

(٢) كان الجنرال مينو قد تزوج من إحدى المصريات وأشهر إسلامه، وسمى نفسه عبد الله باشا مينو.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/٤٧١ ـ ٤٧٥.

تقويض السلطة الانكليزية فيها ، كما أنها لم تستطع تكوين امبراطورية في الشرق العربي توازن بها المستعمرات الانكليزية في الهند .

غير أنها نبهت انكلترا إلى أهمية مصر وما تتمتع به من ميزات سياسية واقتصادية واستراتيجية ، لوقوعها على طريق المستعمرات الانكليزية وعلى طريق التجارة بين الشرق والغرب ، وإلى خطر استيلاء دولة أوروبية أخرى غيرها عليها ، فبذلت أقصى ما تستطيع من جهد حربي بالاتفاق مع السلطنة العثمانية والمماليك ، واستخدمت كل امكانيات اسطولها البحري المتفوق ، ولكن لا لترد مصر إلى حوزة السلطان العثماني ، بل لتمتلكها هي بالذات . وقد اتضحت نواياها هذه من تحالفها مع المماليك فيما بعد لتحقيق هذه الغاية . وحين اخفقت في ذلك ، بادرت إلى توجيه حملة عسكرية بحرية بقيادة الأميرال « فريزر » لاحتلالها ، فاخفقت أيضاً . ومن ذلك الوقت لم تأل جهداً في انتهاز كل فرصة للتدخل في شؤون مصر الداخلية والتصدي لكل دولة أجنبية تحاول تقوية مركزها فيها ، وبذلك ولدت « المسألة المصرية » نتيجة لتنافس الدول الأجنبية حولها .

كما أن فرنسا ، بالرغم من كونها قد أرغمت على إخلاء مصر ، بقيت متصلة بها من الوجهة الثقافية والتجارية مدة طويلة ، فنقلت مصر عنها كثيراً من الأنظمة الادارية والسياسية والقانونية والعلمية والاقتصادية .

على الصعيد الداخلي ، قضت الحملة الفرنسية على سطوة المماليك ونفوذهم ، ولا سيما بعد أن أدرك المصريون ضعفهم وسوء تسلحهم وتدريبهم ، وتخاذلهم أمام الفرنسيين . وتنبهوا إلى ما يراد بوطنهم من شر فاستيقظت في نفوسهم عوامل اليقظة القومية ، وأدركوا أهمية اعتمادهم على أنفسهم ، دون الدخلاء ، ولا سيما وأن الطوق الذي ضرب حولهم وحال دون اتصالهم بالغرب وبمدنيته قد تحطم . وبدأوا يسيرون في طريق التقدم من جميع الوجوه ، إذ أيقظتهم مدافع نابليون من سبات كانوا يغطون فيه منذ أواخر العصور الوسطى ، وفتحت عيونهم لعصر جديد ومدنية جديدة ترتكز على منجزات العلم الحديث ، وتنطوي على أفكار وأنظمة لا عهد لهم بها ، فبدأوا يتلمسون الطريق الصحيح نحو النهوض مستنيرين بما تسرب إليهم من مبادىء الثورة الفرنسية حول الحرية والمساواة التي تكلم الفرنسيون بها أثناء إقامتهم في مصر ، ولا سيما في المنشور الذي أذاعه نابليون على الشعب المصري «بأن جميع الناس متساوون ، وأن الذي يميز بعضهم عن بعض هو العمل والفضائل والعلم»[1] ، وأن ليس من ميزة للمماليك تميزهم عن أفراد الشعب .

ومن نتائج الحملة بروز محمد علي ، ذلك الضابط

---

(١) «نص المنشور في ملاحق الكتاب».

العثماني ، الالباني ، الذي أتي مع حملة عثمانية لطرد الفرنسيين ، فواتته الظروف كي يؤسس لنفسه سلالة حاكمة في مصر ، وبدأ يطبق ما شاهده من أساليب الفرنسيين في الحكم والادارة ، والخطط الرامية لانعاش الزراعة والصناعة والتجارة ، وفي بناء جيشه بناءً حديثاً ، وتزويده بالمعدات والاسلحة الحديثة التي ظهرت نتائج تفوقها على أسلحة المماليك البالية .

وقد أثرت الحملة الفرنسية على مصر كذلك من الناحية الاجتماعية ، إذ كانت تمثل مجتمعاً يختلف عن المجتمع المصري من حيث العادات والتقاليد ، ومن حيث درجة التحرر . وجاءت الضرورات العسكرية ، والضرورات الادارية والمالية والصحية ، لكي تجبر الحملة عل اتخاذ قرارات تؤثر في عادات الأهالي وتقاليدهم، هذا علاوة على أن مجرد عملية التعايش بين هذه القوات العسكرية والأهالي ستعطي بعض النتائج في الميدان الاجتماعي . فقد أمر الجنرال بونابرت بهدم أبواب الحارات والأزقة بشكل يسمح لقواته بسهولة الحركة في القاهرة ، كما أمر بضرورة تنظيف الشوارع ورشها وإضاءتها ليلاً ، ووضع نظاماً لدفن الموتى في أماكن مخصصة لهم بعيدة عن العمران . وظهر كل ذلك أمام المصريين في أول الأمر على أنه نوع من التحكم . وشهدت القاهرة أنواعاً جديدة من النشاط مثل خروج الرجال مع السيدات للتنزه ، وكذلك إنشاء المطاعم ، ودور الشراب والمسارح ، وكانت هذه الأنماط من

النشاط الاجتماعي غير معروفة لدى المصريين ونظروا إليها على أنها تحمل السوء أكثر مما تحمل من الخير .

أما عن علاقة الرجال بالسيدات ، فإنها كانت جانباً خاصاً يمثل صدمة عنيفة بالنسبة لمجتمع إسلامي شرقي . وبعد أن كانت القوات الفرنسية تحترم مشاعر المصريين ، جاءت الاحتفالات العامة ، وظهر فيها تحرر الفرنسيين ، فأخذوا يتنزهون في القوارب في النيل ومعهم السيدات ، وهم يغنون ويضحكون . وقد نظر المصريون إلى ذلك على أنه فجور وفحش . كما ظهرت مجموعات من النساء الساقطات وبنات الهوى اللاتي تعشن مع جنود الاحتلال بشكل لم تشهده القاهرة من قبل ، الأمر الذي أحدث جرحاً عميقاً في نفوس المصريين وإصراراً على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ، وتصميماً على الانتقام من الفرنسيين وإخراجهم من البلاد .

وتركت الحملة الفرنسية أثاراً واضحة في ميدان العلوم والفنون والآداب . فقد رافق الحملة كثير من العلماء الفرنسيين ، كما جلبت معها مطبعة عربية وأخرى فرنسية لطباعة منشورات نابليون الموجهة نحو المصريين لغايات دعائية سياسية . كما قامت بإنشاء المجمع العلمي في القاهرة برئاسة العالم الرياضي مونج (Monge) . وقد سجل لنا الجبرتي بعض ما رآه عند تردده على سراي المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون وشاهد محتويات المكتبة والقسم الخاص بعلماء الفلك كما

شاهد بنفسه تجربة علمية جرت أمامه[1] . وقد توزع أعضاء هذا المجتمع العلمي على لجان مختلفة منها لجنة للتشريع والديانة والعادات ، وأخرى للادارة ، وثالثة لنظام الشرطة ، إلى جانب لجان للتاريخ وللأمور العسكرية والتجارة والصناعة والزراعة والتاريخ الطبيعي وللآثار القديمة وللنيل والفيضان . وكان أعضاء المجمع يطوفون في أنحاء مصر منقبين باحثين عن كل ماله علاقة بموضوع بحثهم وقد جمعوا أبحاثهم برمتها في كتاب ضخم أطلقوا عليه اسم « وصف مصر » .

ومن أهم بحوث الحملة العلمية مشروع وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط بقناة ، إذ أجريت دراسات على برزخ السويس تضمنها تقرير قدمه المهندس ليبير (Lipère) وأظهر فيه أهمية استخدام هذه القناة ، وقد استرشد المهندس « دي ليسبس » فيما بعد بهذا التقرير عندما أقدم على تنفيذ مشروعه ، وذلك بعد أن تجاوز الخطأ الحسابي الذي وقع فيه سلفه ، من أن مستوى مياه البحر الأحمر أعلى منه في البحر المتوسط بتسعة أمتار ، والذي خشي معه أن يفيض الماء على أرض الدلتا إذا فتحت القناة .

ومن النتائج الهامة للحملة عثور الضابط الفرنسي « بوشار » على حجر رشيد الذي أدى دراسة الكتابات الثلاث عليه باللغات الهيروغليفية والديموطيقية والاغريقية ، إلى معرفة أسرار الكتابة

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

المصرية القديمة التي تصدى لتفسيرها وحل رموزها علماء كثيرون على رأسهم الفرنسي شامبليون .

٣ ـ محاولة النظام العثماني المملوكي العودة والاجهاز عليه :

لم تكد حملة نابليون تجلو عن مصر حتى اتجهت جهود العثمانيين إلى تشديد قبضتهم عليها ، وفي نفس الوقت حاول المماليك بمساعدة الانكليز ، أن يستعيدوا ما كان لهم من نفوذ وسيطرة ، دون أن يحسب الطرفان المتصارعان حساباً لقوة الشعب المصري الذي استيقظ وبدأت عوامل الوعي القومي تغزو شعوره منذ آواخر حكم العثمانيين والمماليك ، قبيل الحملة الفرنسية ، حينما انتفض وقام بمظاهرة ضد الظلم والضرائب الجائرة التي فرضت عليه ، واستطاع بواسطة علماء الدين من زعمائه أن يحصل على مواثيق مكتوبة وقعت من قبل الوالي العثماني والأميرين المملوكيين ابراهيم بك ومراد بك تعهدوا فيها برفع الظلم وإقامة الشرع وإبطال الضرائب الجائرة[١] . وقد جاءت الحملة الفرنسية تزيد من يقظة المصريين ، وتتيح لهم فرصة التعبير عن شخصيتهم وارادتهم ، سواء باشتراكهم في الدواوين التي أوجدها نابليون ، أو بالثورات التي قاموا بها في وجه المحتل .

على أن عودة العثمانيين والمماليك إلى أساليب الظلم

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار حوادث ١٢٠٩ هـ ١٧٩٥ م.

والارهاق ، بعد جلاء الفرنسيين ، حفزت الشعب على التخلص منهم. جميعاً بقيادة زعمائه ، وعلى رأسهم عمر مكرم نقيب الأشراف وقد أظهر الشعب المصري قوته من أول وهلة وفرض ارادته في مختلف الظروف .

قام الجند الالبان (الأرناؤوط) وهزموا الوالي خسرو باشا عندما تأخر في دفع رواتبهم وفرضوا قائدهم طاهر باشا نائباً عنه ريثما يأتي فرمان بتثبيته . وقد استاء الجند الانكشاريون من ذلك وقتلوا الوالي الجديد ونصبوا غيره ، فهاج الشعب بدوره وتمكن بمساعدة محمد علي ، الذي اختاره الالبان خلفاً لقائدهم المقتول ، من طرد الوالي والانكشاريين خارج مصر .

عاد الحكم إلى المماليك ، وراح محمد علي يلعب من وراء الستار متقرباً من العامة ، مظهراً أنه نصير لها، محقق لآمالها، رافع عنها الظلم والضرائب المرهقة فيما إذا وصل إلى الحكم ، فوثق الشعب به . ولما أخذ المماليك في أرهاق الناس بالضرائب ، سارت الجماهير إلى الأزهر تطالب العلماء بوضع حد لهم ولظلمهم . وأسفرت النتيجة عن مهاجمتهم وطردهم فهربوا إلى الصعيد .

عيّن السلطان خورشيد باشا والياً ، فاستصدر فرماناً بإبعاد محمد على وفرقته ، عندها ثار الشعب وأحبط الخطة ، وفرض إرادته ببقائه ، ولما استقدم الوالي جيشاً جديداً ، أخذ يعيث

فساداً في القاهرة ، فهاجمه الشعب وحاصره . وقرر الزعماء عزله وتنصيب محمد علي والياً . فذهب عمر مكرم وعبد الله الشرقاوي إلى داره وأبلغاه القرار وألبساه خلعة الولاية بشرط أن « يسير بالعدل ، ويقيم الشرائع ،ويرفع المظالم ، وألاّ يفعل شيئاً إلا بمشورة العلماء تحت طائلة العزل متى خالف الشروط»[1] .

ولما رفض خورشيد الاذعان ، حاصرته الجماهير المسلحة في القلعة وأرغمته على الخضوع ، وأشعرت السلطان بما حصل ، فرضخ للأمر الواقع وأرسل فرماناً بتولية محمد علي في ٩ تموز ١٨٠٥ م . ونصّ الفرمان على أن التعيين كان بسبب ارادة الشعب وتأييده . وهكذا توجت ثورة الشعب بفوز ارادة الأمة ، وباعتراف السلطان بحقها في تقرير مصيرها .

غير أن محمد علي لم يراع شروط الشعب إلاّ لفترة وجيزة لجأ بعدها إلى التخلص من الزعامات الشعبية التي بدأت تضايقه في كل مرة يريد فيها أن يفرض ضرائب جديدة ، واستغل تنافس الزعماء وكيد بعضهم لبعض ، وقضى على تدخلهم في شؤون الحكم . وعندما ضج الشعب وحاول الاستعانة بزعمائه ، كان محمد علي قد استمال القسم الأكبر منهم بالمال والمناصب ، ما عدا عمر مكرم ، الذي لم تؤثر فيه المغريات . فلم ير محمد علي بداً من نفيه إلى دمياط وانفرد بالحكم .

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار حوادث ١٢٢٠/١٨٠٥ م.

في هذا الوقت فوجئت مصر بحملة الأميرال « فريزر » التي جاءت لتحقيق مطامع الانكليز الاستعمارية سنة ١٨٠٧ ، بعد أن اخفقوا في اقناع السلطنة العثمانية باسناد حكم مصر إلى أصدقائهم المماليك . غير أنها اضطرت إلى الجلاء بفضل المقاومة المصرية الضارية ، وتصميم محمد علي على طردها ، وانهيار الأمل الذي عقدته على مساعدة المماليك لها .

واتبع محمد علي نصره هذا بالقضاء على المماليك في قلعة القاهرة أثر مؤامرة دبرها لهم بمناسبة سفر ابنه طوسون على رأس الحملة التي طلب السلطان إليه توجيهها لإخماد الحركة الوهابية سنة ١٨١١ م . حيث استأصل شأفتهم وتفرغ من ثمة لبناء دولته الحديثة .

وقد عاش الجبرتي من حكم محمد علي سنواته العشرون الأولى ، وهي السنوات التي شغل فيها بتحطيم مقومات البناء القديم مع ما صاحبها من عنف وقسوة ومصادرة ، وهذه كلها أمور سجلها الجبرتي ناقداً ساخطاً دون أن يعي أن هذه الاجراءات وهذه الآلام التي عانى منها المصريون ليست إلا الضريبة التي يتوجب دفعها لتحقيق نهضة مصر فيما تلى ذلك من القرن التاسع عشر .

ثانياً : الحالة الاجتماعية والثقافية :

كان هيكل المجتمع المصري المؤلف من أقل من ثلاثة

ملايين نسمة يتكون في أواخر القرن الثامن عشر من طبقتي الحكام والمحكومين . أما الحكام فهم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد ، وكان عدد المقاتلة منهم يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف ، ما بين مقدمين وامراء وكشاف وضباط أوجاقات وأجناد وأتباع[١] ،وعلى رأس هذه الفئة من الناحية الشكلية ، الوالي أو الباشا التركي الذي كان يمثل حكومة السلطان في استامبول . ولم يكن لهذا الوالي أي نفوذ في عصر الجبرتي ، فقد كان عديم السلطة ، يعزل في الوقت الذي يفقد فيه ولاء أمراء الأتراك[٢] ، أو يقتل ليحل محله والٍ أو باشا جديد ، ليقوم بنفس الدور في الرياسة الشكلية ، ثم يعزل أو يقتل . وتمتلىء صفحات الجزئين الأول والثاني من عجائب الآثار[٣] بأخبار هؤلاء الولاة الأتراك الضعاف . وأما المحكومون فهم أبناء الشعب المصري الذين اشتركوا معاً في عبء حمل حكم المماليك الأخرق ، وسيادة الأتراك الجاهلة. وقد انقسم المصريون إلى طبقات أو فئات تختلف فيما بينها من حيث المكانة الاجتماعية . فعلى قمة الهيكل الاجتماعي كان العلماء ورجال الشرع ، والعلماء هنا هم علماء الأزهر ، حيث لم يوجد

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي: تاريخ الحركة القومية ١/٤٨ ـ ٤٩.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ١/٣٠٨.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار ١/٦١١ وكذلك عبد الرحمن الرافعي: مرجع مذكور ١/١٩ ـ ٢٠.

في ذلك العصر سواهم ، ويلي تلك الطبقة طبقة الملاك والتجار ، ثم طبقة المزارعين والفلاحين ، ثم طبقة الصنّاع[1] . وقد تحملت الطائفتان الأخيرتان كل ألوان الاذلال والقهر ، وعاشتا ضحية التعسف والاستغلال ، وحصدت المجاعات والاوبئة الآلاف منهم. وتمتلىء صفحات عجائب الآثار[2] بأقاصيص الاذلال التي نسجتها تصرفات فرسان المماليك لهؤلاء الضحايا ، سواء في المدن أو القرى ، من نهب إلى سرقة ، إلى وقتل وتشريد واحراق البلاد والقرى، إلى انتهاك الأعراض وأبسط مبادىء الانسانية.

على ضوء ما تقدم يمكن التنبؤ سلفاً بالحالة الثقافية في عصر الجبرتي . وكان الأزهر المعقل الوحيد للثقافة والفكر في تلك الفترة المظلمة ، وله فضل خاص على آداب اللغة العربية لأنه احتفظ بها في أثناء « الأجيال المظلمة »[3] .

ويجمع المؤرخون على أن الجهل كان فاشياً وأن الشعب في تلك الفترة قد رزح « تحت نير الاستغلال وظلام الجهالة ،

---

(١) حكمت أبو زيد: المجتمع القاهري كما صوره الجبرتي ضمن دراسات عن الجبرتي ص ٣٤٣ ـ ٣٥٩.

(٢) على سبيل المثال ما ذكره الجبرتي عن مراد بك الذي اشتط، وجمع الأموال من الأهالي، وفرض مقادير كبيرة من المال عليهم، وحبس كثير من مساتير القوم من التجار والمتسببين ومصادرة أموالهم انظر عجائب الآثار ١/١١٦.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ١٦/٤

وحرمت البلاد من معاهد التعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذي كان قائماً منذ قرون ، وبعض المدارس الملحقة بالمساجد ، فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأت شعلة العلم في مصر ، وكان في القاهرة وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف ، لكنها كانت ضعيفة الأثر في تبديد ظلام الجهالة في البلاد »[1] .

أما المدارس الأخرى التي انتشرت وازدهرت في العهدين الفاطمي والأيوبي ، فقد آل أمر أكثرها إلى الخراب » حتى انقطع التدريس عنها بالكلية ، وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات إلى عماراتها وحرمتها ، فامتدت أيدي الناس والظَّلمة إلى بيع رحابها وأبوابها وشبابيكها ، حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجليلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة في أغلب الأيام ، وبعضها زال بالكلية ، وصار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك ، ولله عاقبة الأمور »[2] .

كما تبدّدت خزائن الكتب التي كانت عامرة بالكتب ، ولم يبق إلاّ بعض المكتبات الملحقة بالمساجد ، كمكتبة الأزهر التي كان

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ١٦/٤ .

(٢) جرجي زيدان: المرجع نفسه ص ١٧ .

بها إلى عهد الحملة الفرنسية نحو ثلاثة وثلاثين ألف مجلد[١] .

وقد ترتب على هذا كله أن قلّ عدد المثقفين ، وانحصر داخل اطار المتعلمين في الأزهر ، كما قلّ عدد من نبغوا في الحياة الأدبية أو العلمية ، فلا « تكاد تعد في هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجي ، والسيد محمد مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور ، صاحب «تاج العروس في شرح القاموس» وعبد الوهاب الشعراني صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، وابن أبي السرور البكري صاحب الروضة المأنوسة ، وعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور ، ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرتي في كتابه من علماء ذلك العصر ، لما رأيت من يصح اعتباره عالماً نابهاً في الفلسفة أو العلوم ، أو الآداب. . . »[٢] .

ولقد انعكس هذا الفقر الثقافي على حياة مصر والمصريين ، حتى ابتدأت حركة الاصلاح في عهد محمد علي بإرسال البعثات إلى أوروبا ، وما ترتب عليها من محاولة نقل مصر والمصريين من ظلمات العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ٤٦/١ نقلاً عن الخطط التوفيقية.

(٢) عبد الرحمن الرافعي: نفس المرجع ص ٤٧.

الفصل الثاني
التعريف بالجبرتي

١ ـ نسبه

ـ هو عبد الرحمن بن أبي التداني حسن بن برهان الدين إبراهيم بن حسن بن نور الدين علي بن شمس الدين محمد بن زين الدين عبد الرحمن الجبرتي الحنفي . ويكنى بأبي العزم .

أما نسبة الجبرتي المضافة إلى اسمه فتعود إلى «جبرت»[١] الموطن الأصلي لأجداده القدامى . وهي أقليم ساحلي يقع إلى الغرب من ميناء زيلع على البحر الأحمر بالحبشة ، وهي بلاد قدّمت كثيراً من العلماء المسلمين: كفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي المتوفي سنة ١٣٤٢ هـ[٢] والمتحدث الكبير جمال الدين بن عبد الله بن يوسف الزيلعي المتوفى ١٣٦١ هـ . وقد كتب الجبرتي عند الكلام على وفاة والده فصلاً عن موطن أجداده فقال:

---

(١) انظر محمود محمود الصيّاد: جبرة وجبرت ص ٥٨٣ ـ ٥٩٤ في كتاب عبد الرحمن الجبرتي ـ دراسات وبحوث، اشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦ .

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٤٤٢/١ .

«وبلاد الجبرت بلاد معروفة تسكنها هذه الطائفة ، وهم المسلمون ، بذلك الإقليم . ويتمذهبون بمذهب الحنفي والشافعي . . وينسبون إلى سيدنا أسلم بن عقيل بن أبي طالب . . . وهم قوم يغلب عليهم التقشف والصلاح . ويأتون من بلادهم بقصد الحج والمجاورة في طلب العلم . ويحجّون مشاة . ولهم رواق بالمدينة المنورة ، ورواق بالجامع الأزهر بمصر»[١] .

كما عدّد صفات أهل هذا الإقليم وما فيهم من الحذق والفطانة ولطافة الطباع . وصفاء القلوب ، وما عند نسائهم من الصباحة والملاحة والفصاحة والسماحة ، وذكر في نساء وطنه شعراً لطيفاً ، ومنه للقاضي عبد البر بن الشحنة الحنفي حيث يقول:

حبشيــة سـألتهــا عن جنسهــا | فتبسّمت عن درّ ثغـر جـوهــري
فطفقت أسأل عن نعومة ما خفي | قالت فما تبغيه جنسي أمحري

والأمحرية تتفوق على غيرهم من الأحباش باللطف والظرف[٢] .

٢ ـ آل الجبرتي في مصر

يظهر من الرواية التي يقدمها مؤرخنا لتاريخ أسرته[٣] ان جده السابع ، وسميه عبد الرحمن هو أول من هاجر من أجداده ، في أوائل القرن العاشر الهجري (أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن

---

(١) الجبرتي: نفسه ١/ ٤٤١ .
(٢) الجبرتي: نفسه ١/ ٤٤٢ .
(٣) الجبرتي: نفسه ١/ ٤٤٤ .

السادس عشر الميلادي) ، من جبرت إلى جدة ، ثم إلى مكة حيث جاور بها وحجّ مراراً . ثم جاور بالمدينة ستين قضاهما في الدراسة على من لقيهم بالحرمين من كبار الشيوخ . ومن المدينة ارتحل إلى مصر لتلقي العلم في الجامع الأزهر فاستقرّ بها ، وتزوّج ووُلِد له ، وكبُر شأنه ، واتصل بالعلماء إلى أن اختير شيخاً لرواق الجبرت[1] ؛ وقد ظلت مشيخة الرواق ثلاثة قرون متوالية يتولاها أولاد الشيخ عبد الرحمن هذا حتى انتقلت عنهم بوفاة الجبرتي . فلمّا مات خلفه الشيخ شمس الدين محمد . فنشأ على قدم الصلاح والاشتغال بطلب العلم ، وتولى مشيخة الرواق كوالده . وقرأ دروساً في الفقه والمعقول بالرواق . وكان على غاية الصلاح وملازمة الجماعة والسنن وله كرامات .

وبدءاً من جده الخامس علي بدأت أخباره ثروة الأسرة تصل إلينا . فقد تزوّج بـ«زينب الجوينية» ، ابنة الإمام العلامة القاضي عبد الرحمن الجويني ، التي كان لها «أماكن جارية في ملكها وقفتها على ولدي زوجها» . ولم يزل مواظباً على شأنه وطريقة اسلافه حتى توفي عن ولدين هما حسن الذي توفي عام ١٠٩٧ هـ ، وعبد الرحمن ، وقد مات في حياة أخيه عام ١٠٨٦ هـ .

ولما توفي حسن ، كان ابنه إبراهيم رضيعاً فكفلته والدته الحاجة مريم ابنة الشيخ عمر المنزلي الأنصاري . حتى إذا بلغ الحلم زوّجوه بستيتة ابنة عبد الوهاب الدلجي في سنة ١١٠٨ هـ .

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١/ ٤٤٥ ـ ٤٦٦ .

ومات إبراهيم سنة ١١١٠ هـ ١٦٩٨ م ، ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره ، تاركاً طفلاً رضيعاً في شهره الأول هو حسن والد الجبرتي .

وعلى قلة ما يذكر الجبرتي عن نفسه ، فقد أفاض في الترجمة لوالده لدرجة أن ديباجة ألقابه ومرادفات تشريفه بلغت أكثر من ستين لقباً ، ولم يؤثر عنه في مئات التراجم لفحول الأمراء والعلماء أنه خلع عليهم بعض تلك الأوصاف . . . كفلت الطفل حسن جدته لأبيه ، وتولت أمه تربيته . وجُعل وصياً عليه الشيخ محمد النشرتي الذي اختاره شيخاً للرواق كأبيه وأسلافه . وللشيخ محمد النشرتي ، وكان شيخاً للأزهر ، كثير من الفضل في تربية حسن الجبرتي . وكذلك لجدته لأبيه أكبر الفضل في تهيئة سبيله إلى تلك المكانة الممتازة التي بلغ إليها فيما بعد .

ويبدو إن هذه الجدة كانت شديدة الثراء فقد كان لها بيت «يشرف على النيل بربع الخرنوب» أقام معها فيه فترة من الزمن يروح ويغدو إلى الجامع الأزهر ومعه خادم . ثم احترق هذا المنزل واحترقت معه أشياء كثيرة من المتاع والصيني القديم»[1] فانتقلت الجدة إلى مصر ، وكان يذهب معها إلى مكان لها بمصر القديمة في أيام النيل «بقصد النزهة» . وباختصار فأن هذه الجدة كانت «ذات غنى وثروة ولها أملاك وعقارات» . وعندما ماتت «وقفت عليه (أي على الشيخ حسن الجبرتي) أماكن ومنها الوكالة

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١/ ٤٤٥ .

بالصنادقية ، والحوانيت بجوارها وبالغورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الاقبغاوية ، ورتّبت في وقفها عدة خيرات ومكتبة لاقراء أيتام المسلمين بالحانوت المواجه للوكالة المذكورة ، وربعة تقرأ في كل يوم وختمات في ليالي المواسم وقصعتي ثريد في كل ليلة من ليالي رمضان وثلاث جواميس تفرق لحمها على الفقهاء والأيتام والفقراء في الأضحية»[١] .

هذه الجدة كانت شابة حينئذ . فتزوجها الأمير علي آغا باش المعروف بالطوري ، نسبة إلى قلعة الطور التي كان له حكمها . مضافاً إليها قلعتا السويس والمويلح . وقد فطن الشيخ حسن بثاقب بصيرته ، حين بلغ مبلغ الرجال ، إلى أن في هذا الزواج تبعيداً بينه وبين جدته الثرية ، فتزوج ابنة هذا الأمير ليزيد علاقته به توثيقاً .

ولما مات علي آغا الطوري آلت إلى الشيخ حسن حكم هذه القلاع المشار إليها . وكان هذا العمل غريباً عليه ، وهو من العلماء ، ولذلك لم يطل شغله لها ، فقد أرسل خادماً له يسمى سليماناً الحصافي مشرفاً على قلعة مويلح فقتل هناك . فتكدر الشيخ وترك هذا العمل وأقبل على الاشتغال بالعلم والتفرغ له[٢] .

ولما ماتت زوجته ، ابنة الأمير علي آغا ، تزوج من ابنة رمضان جلبي بن يوسف المعروف بالخشّاب «وهم بيت مجد وثروة ببولاق ولهم أملاك وعقارات وأوقاف ، من ذلك: وكالة الكتان وربع وحوانيت تجاه جامع الزردكاش ، وبيت كبير بساحل النيل ، وآخر

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٤٤٩/١ .
(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٤٥٠/١ .

تجاه جامع مرزة جربجي» . وغالباً فأن هذا كله ، أو جزء كبير منه ، قد آل إلى الشيخ حسن ، فقد توفي رمضان جلبي في حياة ابنته ، وظلت في عصمة زوجها إلى أن ماتت في حياته[1] . وقد تصاعفت الثروة أيضاً بالتجارة والاستثمار .

فالشيخ حسن كان «مع اشتغاله بالعلم يعاني التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمضاربة والمقايضة» ويمكن تقدير حجم ثروته إذا ما وضعنا في الإعتبار انه كانت له «ثلاثة مساكن أحداها بالصنادقية بالقرب من الأزهر ، والآخر بالابرازية بشاطىء النيل ، ومنزل زوجته القديمة تجاه جامع مرزة ، وله في كل منزل زوجة وسراري وخدم» وأنه كان يقتني «المماليك والعبيد والجواري البيض والحبوش والسود»[2] .

إلى جانب ثرائه ، كان الشيخ حسن الجبرتي ، عالماً من أكبر علماء عصره في العلوم الشرعية والرياضة؛ تعلم الخط فأجاده ، والنقش على فصوص الخاتم فأحكمه ، وتعلّم اللغة التركية وهي لغة أهل السيادة والحكم ، واللغة الفارسية فأجادهما «حتى ان كثيراً من الأعاجم والأتراك يعتقدون ان أصله من بلادهم ، لفصاحته في التكلم بلسانهم ولغتهم»[3] ثم اشتغل بعلوم الرياضة فأتقن منها الفلك

---

(١) كانت بارة بوالد الجبرتي مطيعة له، تشتري له الجواري الحسان من مالها، وتقدمهن إليه وتعتقد أن في ذلك مثوبة لها. وقد أورد عنها الجبرتي قصة طريفة في هذا الخصوص انظر ـ عجائب الآثار ١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ١/٤٥٨.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار ١/٤٥٢.

والهندسة والحساب ، والجغرافية والمساحة والأوقاف ، وحلّ الرموز ، وفتح الكنوز ، «وانتهت إليه الرياسة في الصناعة ، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة» .

وأخذ معارفه الصوفية ، على يد الشيخ العارف عبد الخالق بن وفاء ، وكانت له فيها قدم . وسلك طريقة السادة النقشبندية ، وحفظ القرآن وهو في العاشرة .

وقد تلقى الشيخ حسن عن كبار الشيوخ في عصره ، في مصر وغيرها ، وتلقى عنه عدد كبير من أهل الروم والشام والمغرب والحجاز والداغستان ، وكذلك بعض أمراء المماليك تلقوا عنه علوم الأدب واللغة والفقه . فقد ذكر الجبرتي في ترجمة عثمان بك ذو الفقار انه «قرأ على الشيخ الوالد تحفة الملوك في المذهب ، والمقامات الحريرية ، وكتبها له بخطه الحسن في خمسين جزءاً»[1] .

وقد درس الشيخ حسن الجبرتي في الأزهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت . وهو آخر من درّسها فيه . كما كان تلامذته وطلابه يقصدون إليه في بيته ، بالصنادقية خاصة ، بل ان بعضهم كان يقيم عنده طاعماً كاسياً ، ليتعلم ويراجع ما يشاء من مكتبة الشيخ العامرة . ومن التلاميذ من أقام ببيت الشيخ عشرين عاماً «لا يتكلف إلى شيء من أمر معاشه ، حتى غسل ثيابه ، من غير ملل ولا ضجر»[2] .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ١/ ٢٦٥.

(٢) عجائب الآثار ١/ ٤٥٨.

أما علاقة الشيخ حسن الجبرتي بالسلطة المملوكية في مصر فأنها لم تنقطع ، فقد كانت له «منزلة عظيمة في قلوب الأكابر والأمراء والوزراء والأعيان ، ويسعون إليه . ويذهب لبعض المقتضيات والشفاعات ويرسل إليهم فلا يردون شفاعة ، ولا يتوانون في حاجة يتكلم فيها ، وله عندهم محبة ومنزلة في قلوبهم زيادة على نظرائه من الأشياخ لمعرفته بلسانهم واصطلاحهم ورغبتهم فيما يعلمونه فيه من المزايا والأسرار والمعارف المختص بها دون غيره وخصوصاً أكابر العثمانيين والوزراء وأهل العلوم والفضائل منهم»[1] . وتبلغ هذه المكانة قمتها إذ يرسل إليه السلطان العثماني مصطفى نسخاً من الكتب المودعة بخزائنه[2] وكذلك أكابر الدولة بالروم ومصر وباشة تونس والجزائر[3] .

وهكذا عاش الشيخ حسن الجبرتي ، والد مؤرخنا . إلى أن جاءت سنة ١١٧٩ هـ حيث توفيّ ابنه أبو الفلاح علي ، وكان عمره أثنتي عشرة سنة . وكان الشيخ حسن قد أنجب من زوجاته وسراريه أكثر من أربعين ولداً ، لم يعش منهم سوى علي هذا وعبد الرحمن المؤرخ . فلما مات ابنه علي ثقل عليه الحزن وتوالت عليه الأمراض والآلام ، فترك بيوته على النيل ، ولزم بيت الصنادقية . وقلّت حركته ، ولكنه لم ينقطع عن الاملاء والإفادة والتحقيق . ولم يزل

---

(١) خليل شيبوب: عبد الرحمن الجبرتي - دار المعارف القاهرة ١٩٤٨ ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ١/ ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار ١/ ٤٦٠.

كذلك حتى تعلّل بالهيضة الصفراوية اثني عشر يوماً . ثم مات عن سبعين سنة من يوم الثلاثاء غرة صفر من سنة ١١٨٨ هـ/ نيسان ١٧٧٤ م . وصليّ عليه بمشهد حافل جداً في الأزهر ، ودفن عند أسلافه وقيلت فيه المراثي الكثيرة من كبار شعراء العصر[١] .

٣ ـ ولادة عبد الرحمن الجبرتي ونشأته

في مثل هذه البيئة العلمية الثقافية المترفة ، ولدا أبو العزم عبد الرحمن الجبرتي ، من إحدى سراري والده الشيخ حسن في سنة ١١٦٧ هـ/ ١٧٥٤ م ، بالقاهرة ولا نعرف شيئاً عن هذه الجارية ، هل كانت بيضاء أو سوداء ، ومن أي جنس أو بلد هي .

أرسله أبوه وهو طفل إلى مدرسة السنانية، القريبة من بيتهم بالصنادقية ليحفظ القرآن فيها ، وكان إذا ما عاد منها تلقى على أبيه ، وعلى بعض الشيوخ الذين كانوا يترددون على بيته بعض العلوم ، حتى أتم حفظ القرآن الكريم وهو في سن الحادية عشرة . ثم رغب الشيخ عبد الرحمن العريشي إلى أبيه في ان يلحقه برواق الشام ، ليلقنه مذهب الحنفية ، فسلّمه إليه .

وبادر أبوه فزوّجه ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، في سنة ١١٨٢ هـ . . ولم يذكر لنا التاريخ أيضاً عن هذه الزوجة شيئاً . وقد سجل شاعر العصر الشيخ عبد الله الادكاوي هذه الزيجة بقصيدة قدّمها إلى والد الجبرتي قال في ختامها:

هذا هناء محبّك الـ ـداعي لكم بسمو قدرك

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١/ ٤٦٨.

والحال قد أرّخته شمس البها زُفّت لبدرك

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ في الأزهر بعد ذلك ، ثم يمضي إلى بيته ، فيتلقاه أبوه متحدثاً إليه في التاريخ وأحداث عصره . فقد كان والده محبّاً للقصص والأغاني ، ودارساً معه ما يشتغل به من علوم الفلك والرياضة والحكمة . وكذلك كان زوار الشيخ حسن من كبار العلماء والشعراء والأمراء ، فكان الجبرتي الابن يلقاهم ، فيتحدثون إليه ويحدثهم ، ويفيد من علمهم وأدبهم وحسن توجيههم وتتمكن العلائق بينه وبين الأمراء منهم عامة.

ويبقي حاله كذلك حتى مات أبوه وهو في سن العشرين من عمره ، وترك له ثروة مادية وأدبية . فقد ترك له من الثروة المادية بيوته الثلاثة في بولاق والصنادقية ومصر القديمة ، وأرضاً بالقرب من كفر الزيات في بلدة « أبيار »[1] . وأوقافاً كبيرة على جامع عظيم على بحيرة أدكو . وكان هذا الوقف «عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة» كان أبوه ناظراً عليهم ثم انتقلت نظارتها إليه بعد وفاة أبيه[2].

ولا شك أن الجبرتي المؤرخ قد انتقلت إليه النظارة على أوقاف عدة كان من بينها أوقاف رواق الجبرتية رغم قلة عدد طلابه . ويذكر

---

(١) خليل شيبوب: عبد الرحمن الجبرتي ص ٣٥.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ١/ ٤٤١ شيبوب: عبد الرحمن الجبرتي ص ٣٦.

صاحب الذيل على المقريزي ان هذا الرواق كان عامراً إلى القرن التاسع ، وكان به قليل من الطلبة ولهم ١٥٠ رغيفاً في اليوم[١] . وتدل ميزانية الأزهر في عام ١٩٦٣ على ان هذا الرواق كانت له أوقاف خاصة به يحسب دخلها في ميزانية الأزهر[٢] .

كما اننا نعلم من بعض إشارات عبد الرحمن الجبرتي انه كان يتنظر على أوقاف بعض الأضرحة ومنها قرافة الإمام أبي جعفر الطحطاوي التي ورث التنظر عليها عن صهره علي بن عبد اللّه الروفي الذي توفي ١١٩٩ هـ[٣] . فضلاً عن أوقاف جدة أبيه التي سبق ان أشرنا إليها . من هذه الثروة الوافرة كان الجبرتي الأب «يقتني الكتب النفيسة غير المتداولة»[٤] ويشتري «الآلات الفلكية من ورثة المشتغلين بها »[٥] . وكان كل من الأب والابن كريمين في استضافة الشيوخ والتلاميذ ، لدرجة أن أولهما أنشأ مكتبة عامة في منزلة وضع فيها «نسخاً من الكتب التي يتداول علماء الأزهر قراءتها للطلبة ، فكانوا يأتون إلى ذلك المكان ويأخذون ويغيرون وينقلون من غير استئذان»[٦] وقد أبقى الابن على هذه العادة .

---

(١) حسن عبد الوهاب: الأزهر عمارة وفناً ـ فصل في كتاب الأزهر تاريخه وتطوره ـ وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧١ .

(٢) حسن عبد الوهاب: المرجع نفسه ص ١٧٨، ١٨٥ .

(٣) عجائب الآثار ١/ ٥٩٨ .

(٤) عجائب الآثار ١/ ٤٦٠ .

(٥) عجائب الآثار ١/ ٤٦١ .

(٦) عجائب الآثار ١/ ٤٦٠ .

ويبدو أن الثروة التي تركها له والده قد تضاعفت على يد الجبرتي ، فنحن نعلم من تاريخه انه جدد داره التي بالصنادقية بشكل يقترب بها من دور الأمراء . وكان لها حديقة صغيرة وبها اصطبل للدواب وهري للغلال ، ومطبخ كبير به حاصل تخزن فيه الأحطاب والفحم . وحفر بئراً بجانبه ، وبنى بصدر الرحبة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها لسكن الخدم والعبيد ، وبعضها للضيوف والراحة . ووصف الدار على ما أورده يؤكد ان دخله كان وافراً(١) . وضمن بهذه الدار تعدُّد زيارات شيخه مرتضى الزبيدي واخوانه الأشياخ والمجاورين ، وانتظام حلقته في بيته إذا لم يتمكن من الالقاء في الأزهر . وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه في بولاق ومشتاه بالصنادقية . وسكن الجبرتي ، فترة من الزمن ، في بيت يطل على بركة الرطلي . وكانت كما يقول «يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البحري ، وليس في برها الآخر سوى الأشجار والمزارع ، وتعبرها المراكب والسفائن» . ولا نعلم إذا كانت دارته هذه ملكاً له أو كانت لصديق له أو قريب .

أما الثروة الأدبية التي تركها له والده ، فهي تلك المكانة المرموقة والمحبة التي ربطت بينه وبين علماء عصره وأهل الحكم والثراء فيه ، فقد كانت للابن بعض مكانة الأب . ونحن نعرف من بعض ما أورده في تاريخه انه كان على صلة بالأمير المملوكي محمد الألفي

---

(١) خليل شيبوب: عبد الرحمن الجبرتي ص ٤٣ ـ ٤٤ عبد الرحمن زكي: خطط القاهرة في أيام الجبرتي ٤٨٤ ـ ٤٨٥ .

لدرجة يتحدث فيها الأمير معه عن همومه ويسب أمراءه أمامه ويصفهم بالمغفلين[1] . وانه كان على صلة وثيقة بالأمير رضوان كتخدا إبراهيم بك وصلت به إلى درجة انه بلاه سفراً وحضراً ، يافعاً وكهلاً[2] ، ولا نستبعد ان تكون له علاقة ما بالأمير إبراهيم بك الذي تحدث عنه دائماً بود مشوب بالعطف[3]، كما تمثلت بذلك المجد الأدبي والعلمي الذي صار إليه اسم الجبرتي ، واسم آبائه وأجداده من قبل . وتلك الكنوز العظيمة النادرة من الكتب ، التي أفنى أبوه في جمعها مالاً وجهداً عظيمين .

٤ ـ نشاطاته العلمية

بقي الجبرتي ، بعد وفاة أبيه ، متصلاً بالأزهر وشيوخه ، يحضر دروسهم فيه ، ويزورونه في بيته ، كما كانوا يزورون والده من قبله ، باحثين ، مدارسين . فلما كبر الجبرتي وأجازه شيوخه ، أخذ يلقي دروساً في الأزهر ، وفي بعض المساجد ، وفي بيته . وقدم مصر ، في السنة التي ولد فيها الجبرتي ، عالم كبير من اليمن ، هو السيد مرتضى الزبيدي ، صاحب «تاج العروس»[4] . فلما تعرف عليه الجبرتي فيما بعد ، أعجب به ولازمه وصادقه وأصبح من المواظبين على دروسه مع طائفة كبيرة من اخوانه ، الذين تبوأوا فيما بعد ، مكان الصدارة العلمية والأدبية في مصر . فدرس لهم الزبيدي

---

(١) عجائب الآثار ٣/ ١٥٣ .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٦٤٧ .

(٣) راجع ترجمته في عجائب الآثار ٣/ ٥٣٨ .

(٤) انظر ترجمته في عجائب الآثار ٢/ ١٠٣ ـ ١١٤ .

فصيح ثعلب ، وفقه اللغة للثعالبي ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وسمعوا كثيراً من شرحه للقاموس ، كما سمعوا في الأمالي والشمائل . ودرس الجبرتي علوم الفقه ، ثم مال ميل أبيه لدراسة الفلك والحساب والهندسة ، ومال إلى التصوف ، وكان من مريدي الشيخ محمود الكردي المتوفي سنة ١١٩٥/هـ/ ١٧٨٠ م[1] يرافقه في ذلك الشيخ عبد اللّه الشرقاوي شيخ الأزهر ورئيس الديوان الخصوصي الذي أنشأه نابليون وخلفاؤه[2] . كما درس الطب وألف فيه .

٥ ـ زواجه ثانية

في أواخر سنة ١١٩٥ هـ ، تزوج الجبرتي مرة أخرى ، ولم يقل لنا أين ذهبت زوجه الأولى . أما زوجته الجديدة فهي ربيبة صديقه علي عبد اللّه درويش الرومي ، تزوجها برغبة منه . وكان الرومي هذا رجلاً يعمل عند المماليك «حسن السمت ، نظيف الثياب ، وجيه الطلعة ، مهيب الشكل ، سليم الطوية ، مقبول الروحانية ، نيّف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزة بأسنانه»[3] . وكان مثقفاً غزير الاطلاع . وربيبة علي الرومي هذه ، هي التي أنجبت للجبرتي ولده خليلاً . ومات صهره هذا في سنة ١١٩٩ هـ .

---

(١) محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر ٥٤ ـ ٥٧ .

(٢) عجائب الآثار ١/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨ .

(٣) عجائب الآثار ٢/ ٣٩٦.

٦ ـ اختياره عضواً في الديوان

ظل الجبرتي يفيد ويستفيد ، ويباشر شؤونه الخاصة ، ويراجع في مكتبة أبيه الحافلة حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر في صفر سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨ م . ففوجىء الجبرتي مثل سكان مصر على اختلاف طوائفهم بقدومها ، فلم يكن لدى أحد منهم صورة واضحة عن الأحوال السياسية والحضارية السائدة في أوروبا في ذلك الوقت ، ولم يختلف أمراء المماليك في ذلك عن عامة الناس . وساد شعور بالخوف والذعر بين أهل القاهرة عندما علموا بأن الجيش الفرنسي يوشك على دخول المدينة ، فاعتقدوا ان القاهرة ستستباح ، كما كانت المدن تستباح في الماضي ، وان الناس سوف يؤخذون أسرى أو أرقاء . ولم يحدث المنشور الذي وزعه بونابرت الأثر المرجو منه ، وهو طمأنة الناس . ولم يختلف الجبرتي عن عامة الناس في الشعور بهذا الذعر ، فغادر مع الذين غادروا القاهرة وذهب إلى مزرعته في أبيار قرب كفر الشيخ . ثم عاد إليها بعد قليل مع غيره ، بعد أن أرسل العلماء بإشارة من نابليون إلى من هاجروا ليعودوا .

وطوال مكوث الفرنسيين في مصر لم ينقطع الجبرتي عن تسجيل أعمالهم . وعندما حلّ مينو في قيادة الحملة الفرنسية بعد مقتل الجنرال كليبر ، اختار الجبرتي عضواً في الديوان الذي شكله من تسعة أعضاء . كما اختار صديق الجبرتي الشيخ إسماعيل الخشّاب سكرتيراً للديوان . ولا شك ان بروز مؤرخنا إلى مسرح القيادة العليا قد أتاح له فرصة للتعرف على أحوال الفرنسيين بصورة أدق . لهذا

سنجده يتطرق إلى بعض الأحداث الدولية التي وقعت أثناء عضويته في الديوان ، بخلاف الفترة السابقة . أما لماذا اختار الفرنسيون الجبرتي كأحد الأعضاء التسعة الذين كونوا الديوان؟ ربما يكون تعيينه عائداً إلى انتقاده للقائمين «بالفتنة» في القاهرة إذ لم يسجل في أي من كتابيه ما يدل على انه اتصل بشخصيات فرنسية كما فعل الخشّاب . بل نجده على العكس يتحاشى أي ذكر لصلات نشأت بينه وبينهم ، حتى انه عندما يعدد أسماء أعضاء الديوان لم يذكر اسمه نصاً بل قال: «وكاتبه»[1] ممّا يوحي بنوع من الأحساس بالحرج ، كما أنه تجنّب الإشارة إلى أي موقف اتخذه في المناقشات التي دارت في الديوان والتي روى طرفاً منها . ولما دخل العثمانيون القاهرة بقيادة يوسف باشا ضيا ، لاخلائها من الفرنسيين أخذ هؤلاء بعض أعضاء الديوان رهائن فيما بقي الجبرتي والبكري والسرسي أحراراً وأمرهم الفرنسيون بأن يكون «نظرهم على البلد»[2] ، أي يكون لهم الاشراف على شؤون القاهرة . وبعد انتهاء الحملة الفرنسية على مصر ، ودخولها مرة أخرى في حكم الدولة العثمانية دوّن الجبرتي حوادث هذه الفترة في كتابه «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» . وقد أهدى كتابه هذا إلى الوزير يوسف باشا ضيا . فلما عاد إلى اسطنبول عرضه على السلطان سليمان الثالث ، فأمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى اللغة التركية ، ففرغ من ذلك سنة ١١٢٢ هـ/١٨٠٧/م .

---

(١) عجائب الآثار ٢/ ٣٩٦.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ٤١٦ .

٧ ـ الجبرتي في أخريات أيامه ووفاته

يبدو مما كتبه الجبرتي في الفصول الأخيرة من كتاب «عجائب الآثار» انه أصبح يشكو الأسقام والمرض . يشير إلى ذلك في آخر حديثه عن سنة ١٢٢٥ هـ حيث يذكر «تشويش البال ، وهمّ العيال ، وتكدر الحال ، وكثرة الاشتغال ، وضعف البدن وضيق العطن» [١] .

وقد أصيب الجبرتي في آخر حياته بمحنة قاسية ، ففي صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ هـ/ ١٩ حزيران ١٨٢٢ م ، إذ كان ابنه خليل عائداً من قصر محمد علي في شبرا وكان يشتغل مؤقتاً للصلاة ، وهلالي شهر رمضان وشوال في بلاط محمد علي ، بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه وخنقوه ، ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح عرفه الناس ، ووجدوا على صدره دفاتر مكتوبة وأسطرلابا لرصد النجوم والكواكب .

وتناقل الناس ، والمؤرخون من بعدهم ، شائعات عن اشتراك سليمان اغا السلحدار ومحمد بك الدفتردار ، صهر محمد علي ، في هذه المؤامرة ، وعن استئذان الدفتردار لمحمد علي في تدبيرها[٢] .

وقد أصيب الجبرتي بموت ابنه على هذه الصورة ، وهو بين الكبر والضيق والمرض ، بنازلة شديدة حطمت حياته . فهجر الكتابة والتأليف ، وأنقطع عن القراءة ، وألحّ عليه الحزن وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره . وبقي في داره مريضاً حزيناً ، أعمى ، حتى مات في سنة ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٥ م . وقد أعقب بنتاً عاشت بعده مغمورة ، وولداً ، أو ولدين ، على خلاف بين المؤرخين .

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣/ ٣١٥.

(٢) محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر ١٦ .

وبعد وفاته احترق منزله بالصنادقية ، واحترقت معه المكتبة العظيمة الحافلة التي تركها له والده ، والتي زاد هو عليها زيادة عظيمة . ويذكر بعضهم ان جزءاً من تاريخ الجبرتي احترق أيضاً ، وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة ١٢٣٦ هـ . ودفن الجبرتي مع أبيه في بستان العلماء .

الفصل الثالث
مؤلفات الجبرتي

كتب الجبرتي عن عصور ثلاثة: مصر العثمانية ، والحملة الفرنسية ، وظهور محمد علي ، وهو يصور في ما كتب الأحوال في مصر خلال هذه العصور في أدق وأحسن صورة تاريخية ، وبالذات أحوال مجتمع العلماء والمجتمع المملوكي ، إضافة إلى مادة لا بأس بها بالنسبة للطوائف الأخرى كالتجار وأصحاب الحرف وأهل الذمة ، أما كتبه المخطوطة والمطبوعة :

١ ـ مدة الفرنسيس بمصر

وهي مخطوطة محفوظة في مكتبة جامعة ليدن بهولندا (مجموعة لندبرغ رقم ٦١) أشار إليها المستشرق موريه (Moreh) في مقال كتبه عن مجموعة من مخطوطات الجبرتي الأصلية في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية.

Bulletin of the school of oriental and African studies London 1965 V.XXVIII Part 3 p. p, 524 - 540

وهذه المخطوطة تقع في إحدى وخمسين صفحة ، وتؤرخ لأحداث الشهور السبعة الأولى للحملة الفرنسية على مصر بشيء من

الإسهاب والتفصيل من أوائل المحرم (١٠ من المحرم) سنة ١٢١٣ هـ حتى نهاية رجب من السنة نفسها. وعدد الأسطر في كل صفحة يترواح بين ٢٥ ، ٣٢ سطراً ، في كل سطر ما بين ١٠ ، ٢٠ كلمة. وتوجد بها بعض الإضافات الهامشية لبعض الأحداث التي يكون قد نسيها الجبرتي أو لم تكن في متناول يده أبان كتابتها ، فاستدركها بعدئذٍ وسجلها بالهامش بالخط ذاته. ويوجد على صفحة العنوان الكتابة الآتية:

هذا تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣ هـ إلى سنة ١٢١٦ هـ تأليف العلاّمة عبد الرحمن الجبرتي المصري بخطه رحمه الله.

ويستفاد من عنوان المخطوطة أن الجبرتي كان قد دوّن «تاريخ مدة الفرنسيس» كاملاً في مؤلف خاص به أبان حوادث الحملة الفرنسية. وقد أشار الجبرتي إلى هذا المؤلف في مقدمة «مظهر التقديس» بقوله: ولقد كنت سطرت ما وقع وحصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر إلى أن دخلها مولانا الوزير في أوراق غير منظومة في سلك الاجتماع والاتفاق ، وكثيراً ما كان يخطر ببالي وإن لم يكن ذلك من شأن أمثالي أن أجمع افتراقها وألبسها بالترصيف اتساقها ليكون ذلك تاريخاً مطلعاً اللبيب على عجائب الأخبار وغرائب الآثار وتذكرة بعدنا لكل جيل[1].

(١) «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» طبعة لجنة البيان العربي، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقي القاهرة ١٩٦٩ ص ١٤ و ط. محمد عطا ص ٢٠.

ويبدو من هذه الإشارة أن هذا المؤلّف كان قطعاً في كراريس تشتمل كل قطعة منها على عدة أشهر. وقد ضاعت بقية هذا المؤلف ولم يبق منه سوى قطعة تؤرخ لمدة السبعة أشهر التي تضمنتها المخطوطة. وبذلك يكون الجزء الضائع هو غالبية تلك المخطوطة. أي من بداية شعبان ١٢١٣ هـ حتى أواخر صفر ١٢١٦ هـ، لأن هذه المدة هي التي حدّدها الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار» فهو يقول:

«فكانت مدة الفرنساوية وتحكمهم الديار المصرية ثلاث سنوات وإحدى وعشرين يوماً، فأنهم ملكوا بر إمبابة والجيزة، وكسروا الأمراء المصرية يوم السبت تاسع عشر صفر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، وكان انتقالهم ونزولهم من القلاع وخلو المدينة منهم وانخلاعهم عن التصرف والتحكم ليلة الجمعة الحادي والعشرين من شهر صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف [١]. وبذلك تكون المدة التي اعتبرها الجبرتي هي مدة إقامتهم بالقاهرة وضواحيها فقط. أما المدة من بداية احتلالهم الأسكندرية حتى جلائهم عنها فهي من ١٩ محرم ١٢١٣ إلى نهاية ربيع الثاني ١٢١٦ هـ / ٢ تموز ١٧٩٨ ـ ٨ أيلول ١٨٠١ م [٢].

وقد درس الدكتور مصطفى محمد رمضان [٣] هذه المخطوطة ولاحظ أن الجبرتي سلك فيها منهجاً معتدلاً، فالحقائق والأحداث

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣/١٩٩.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٣/٢٠٧.

(٣) مصطفى محمد رمضان: مخطوطة من تأليف الجبرتي في ليدن في كتاب عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث ص ٢٣٣ ـ ٢٥٤.

التاريخية وإن كانت بها ثابتة وتتفق مع ما جاء في كتابيه: «مظهر التقديس» و «عجائب الآثار»؛ إلاّ أن تفسير الجبرتي لهذه الأحداث وتعليقه عليها هو الذي يختلف. فقد وجه الجبرتي نقده إلى جميع الأطراف؛ العثمانيين والمماليك والفرنسيين وحتى العلماء. وأصدر أحكامه عليهم دون خوف أو وجل ، ولم تؤثر فيه عوامل المعاصرة التي تؤثر في المؤرخ ، كالرغبة والرهبة التي ظهرت إلى حدّ كبيرٍ في كتابه «مظاهر التقديس» وإلى حدٍ ما في كتابه «عجائب الآثار» ، إما لأن نظام الحكم الذي كان قائماً قد تحطم وأصبح في مأمن من عسف الحاكم في ظل احتلال لم يستقر بعد ، أو لأن الجبرتي اعتبرها من مقتنياته الخاصة وليست للتداول نظراً لما تحتوي عليه من أراء لا يرضى عنها علماء عصره. ومما يزكي هذا الرأي خلو المخطوطة من المقدمة أو البسملة والخاتمة ولو كانت معدة للتداول لألتزم فيها القواعد السائدة في التأليف في عصره ، وهي البداية بالبسملة ووضع مقدمة وخاتمة.

غير أنه مما لا شك فيه أنه اعتمد عليها فيما بعد في إخراج كتابيه « مظهر التقديس » « وعجائب الآثار ». بعد أن حذف منها تلك الأراء الصريحة والأخبار التي تسيء إلى سمعة بعض الأشخاص ذلك أن الجبرتي عندما كُلّفَ من الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا بكتابة تاريخ فترة الاحتلال الفرنسي لمصر ، بدأ في كتابته في شهر صفر سنة ١٢١٦ هـ/١٨٠٢ م ، وانتهى منه في شهر شعبان من نفس السنة أي أن تأليف الكتاب قد استغرق ستة شهور ، وهي مدة وجيزة ، نظراً لما يحتويه الكتاب من تفاصيل. ولن يتيسر هذا

للجبرتي إلاّ إذا ضمّ في «مظهر التقديس» ما كتبه في «مدة الفرنسيس» مع اختصار تفاصيله ، لا سيما وأن أحداث الأشهر الأولى من الحملة كانت كثيرة.

٢ ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس

أ ـ مخطوطاته: يوجد من هذا المخطوط بدار الكتب المصرية نسختان.

- نسخة في مجلد مخطوطة بقلم معتاد ، بخط أحمد رزق،فرغ من كتابتها سنة ١٢٩٣ هـ ورقمها ٣٣٠ تاريخ.
- نسخة أخرى في مجلد مخطوطة بقلم معتاد تمّت كتابته سنة ١٢٢٤ هـ رقمها ١٠١ تاريخ

أما خارج مصر فتوجد عدة مخطوطات :

- نسخة بخط المؤلف في مكتبة بايزيد باسطنبول بتركيا رقمها ٧٦.
- نسخة أخرى في مكتبة جار الله باسطنبول أيضاً رقمها ٦١٣.
- نسخة في مكتبة بانكيبور (خدا بخش) رقمها ١٠٥٥.
- نسخة في كيمبردج ببريطانيا (فهرست بوركهارت ص ١٢ رقم ٦).
- نسخة في المتحف البريطاني بلندن (ملحق) برقم ٥٧١.
- نسخة في مؤسسة بريل (مكتبة جامعة ليدن بهولندا ـ مجموعة هوتسما) رقم ١٨٧.

ب ـ طبعاته:

- قام محمد عطا بنشر هذا المؤلف تحت عنوان: مظهر التقديس

بذهاب دولة الفرنسيس ـ «يوميات الجبرتي» في جزئين ، ضمن مجموعة (اخترنا لك) في القاهرة ١٩٥٨ .
- الجزء الأول: ويبدأ ، بعد مقدمة تاريخية سريعة ـ بأحداث شهر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، وينتهي عند أحداث شهر جمادي الأولى سنة ١٢١٤ هـ .
- أما الجزء الثاني فيبدأ بأحداث شهر رجب سنة ١٢١٤ هـ ، وينتهي بأحداث شهر شعبان سنة ١٢١٦ هـ .

ويشير الناشر في مقدمة الكتاب (الجزء الأول ص ٦) بأنه اعتمد في نشره على «النسخ الخطية المستعارة من دار الكتب المصرية» دون أن يدلي بأية تفصيلات عن تلك النسخ ومن الدراسة المقارنة التي أجراها موريه (Moreh) بين المخطوطات الأربعة ، والنسخة المطبوعة بمعرفة محمد عطا ، اتضح له أن نصوص مخطوطات مكتبة بايزيد ، ومكتبة رامبور ، ومكتبة المتحف البريطاني يطابق بعضها بعضاً كلمة بكلمة. أما مخطوط كمبردج ، فلا يشتمل على نفس النص ، لأن بعض فقراته ناقصة. وبناء على هذا فأن نصوص مخطوطات رامبور وبايزيد والمتحف البريطاني أكثر صحة ، وأقل اقتضاباً من مخطوط كيمبردج. كما أن هذه المخطوطات الثلاثة ، وإن كانت تتفق مع طبعة محمد عطا ، إلاّ أنها أقل منها أخطاء ، وأقل في سجعها ، وسوء استخدام الألفاظ فيها عما جاء بطبعة محمد عطا. هذا بالإضافة إلى أن طبعة محمد عطا تشتمل على تفصيلات أكثر مما في مخطوط كيمبردج. لكل هذه الأسباب مجتمعة استنتج موريه بأن المخطوط الذي نقل

عنه محمد عطا كان مسودة للنص الثاني بهذا الكتاب[1] .

ـ في عام ١٩٦١ قام الأساتذة: أحمد زكي عطية ، عبد المنعم عامر ، محمد فهمي عبد اللطيف ، بتحقيق الكتاب ونشرت هذا الكتاب وزارة التربية والتعليم تحت عنوان «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، في جزئين ، الأول ويبدأ بأحداث شهر المحرم سنة ١٢١٣ هـ وينتهي بوقائع شهر رجب سنة ١٢١٤ هـ. والثاني يبدأ بأحداث شهر شعبان سنة ١٢١٤ هـ ويقف عند شهر شعبان سنة ١٢١٦ هـ / ٢٩ كانون الأول ١٧٩٩ ـ ٧ كانون الأول ١٨٠١ م .

ويشير المحققون إلى أنهم قد اعتمدوا في إخراج هذا الكتاب على مخطوطي دار الكتب المصرية رقمي ١٠١ و ٣٣٠ تاريخ (انظر مخطوطات الكتاب). وقد بذلوا جهداً في شرح الألفاظ المستعملة والإصطلاحات العامية التي كان يؤثرها الجبرتي ، وفي بيان معاني العبارات التي ترجع أصولها إلى اللغات: التركية أو الفرنسية أو الفارسية ، مع اعترافهم بأنهم لم يمسّوا أسلوب الجبرتي نفسه أو عبارته التي تحوي بعض الأخطاء النحوية ، حرصاً منهم على أن يجيىء الكتاب صورة لأسلوب عصره ، كما يعللون وجود الأخطاء النحوية بعدم جهل الجبرتي بها ولكنه رأى أن يكون قريباً من العامة في تعبيره ، فآثر أن تبقى أخطاؤهم في تعبيرهم وفي كتابه [2] .

---

(١) محمد محمود السروجي: عجائب الآثار ومظهر التقديس ٢١٨ و Moreh: Ibid P.535.

(٢) الجبرتي: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس تحقيق أحمد زكي عطيه

ـ وهناك طبعة ثالثة في مجلد بتحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقي صدرت عن مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة عام ١٩٦٩ .

ج ـ ترجماته:

هناك ترجمة فرنسية طبعت في الأسكندرية سنة ١٨٣٥ م. قام بها مترجم القنصلية الفرنسية بمصر المسيو كاردان Cardin . كما طبعت هذه الترجمة الأولى مجدداً في باريس عام ١٨٣٨ م بعد أن ألحق بها المترجم كاردان قسماً من «تملك جمهور الفرنساوية» تأليف نقولا الترك بعنوان.

– Journal d'Aburrohman Gabarti pendant l'occupation francaise en Egypte suivi d'un précis de la même campagne par Mallem Nicolas Turki, Secrétaire du prince du Druze. traduit de L'arabe par Alexandre Cardin, drogman chancelier du Consulat de France à Alexandrie, Alexandrie 1835, 1 volume. Paris 1838.

ـ ترجم مصطفى بهجت أفندي كبير أطباء السلطان سليم الثالث كتاب مظاهر التقديس إلى التركية واطلع السلطان على هذه الترجمة التي فرغ منها عام ١٢٢٢ هـ/ ١٨٠٣ م. وظلت مخطوطة إلى أن طبعت في اسطنبول سنة ١٣١٧ هـ .

د ـ مضمون الكتاب وأهميته:

عقب جلاء الفرنسيين عن القاهرة في صفر ١٢١٦ هـ/ تموز ١٨٠١ م ، دخلت القوات العثمانية مدينة القاهرة بقيادة الصدر

وآخرين ١/ المقدمة.

الأعظم يوسف باشا ضيا ، وعادت بذلك مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية مرة ثانية ، بعد احتلال دام أكثر من ثلاث سنوات وابتهج المصريون بهذا الحادث إبتهاجاً عظيماً ، لأن الشعب المصري كان ينظر إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى ، تظلّل المسلمين بظلها الظليل ، كما كان يرى فيها رمزاً للخلافة الإسلامية.

وكان الجبرتي كغيره من المصريين سعيداً بهذا الحدث. وقد صور لنا شعوره وشعور مواطنيه في كتاب الّفه عن أحداث عن هذه الحملة اشترك في تأليفه معه صديقه الشيخ حسن العطار ، حيث أعاد الجبرتي صياغة ما كتبه عن فترة الحملة في يومياته الخاصة «تاريخ مدة الفرنسيس بمصر» وأضاف إليه ما نمّقه صديقه العطار[1] .

بدأ الجبرتي في تصنيف هذا الكتاب على أثر خروج الفرنسيين من القاهرة في أواخر صفر من عام ١٢١٦ هـ ، وانتهى منه كما يقول في سلخ شعبان من السنة نفسها ، أي أنه استغرق في ذلك حوالي ستة أشهر وأهداه إلى الصدر الأعظم. وقد ذكر في خاتمته:

«ثم في الختم به إيماءة إلى أن من ألف الكتاب باسمه وحليت ديباجته برسمه ، وهو مولانا الوزير دام علاه وتحلّت الأيام بوجودها

---

(١) يشير الجبرتي في مقدمة مظهر التقديس إلى اشتراك العطار في تأليف الكتاب بقوله: «وكان ممن اعتنى بجمع تلك الأخبار ونقل غرائب هاتيك الآثار قطب الفضلا - صاحبنا العلامة حسن بن محمد الشهير بالعطار، نظمنا الله واياه في مسلك الأخيار، فضممت ما نمّقه مع بعض منظومه ومنثوره بحسب المناسبة إلى هذا السفر ليتظم معنا في سلك حسن الذكر وسميناه: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» ص ١٤.

فيه وبقاه... ثم لسدته التي هي ملثم شفاه الإقبال، ومحط رحال أفاضل الرجال أهدي كاسد هذا التصنيف وحامل هذا الترصيف فأن لاحظه بعين القبول، وذلك هو المبتغى والمأمول، راج في معالم الأدب سوقه وبطابع السعود لاح شروقه»[1].

ويبدو من هذا الإهداء أن الكتاب ألف بإشارة من الصدر الأعظم، فأخذ بذلك طابعه الرسمي. وهو من حيث اشتراك العطار في تأليفه يختلف بعض الشيء عما سجله الجبرتي في يومياته الخاصة (مخطوطة ليدن)، فهو يحمل بذلك طابعاً مزدوجاً لمنهج المؤلفين؛ الجبرتي والعطّار حيث نرى فيه اهتماماً بالمحسنات اللفظية في كثير من المواطن، كما يتضمن كثيراً من القطع الشعرية والأدبية، لأن العطار أديب وشاعر يأسره الأسلوب الأدبي، ويعبر عن الحوادث بشعر أخاذ. فهو مثلاً يقول في قصيدته التي أهداها إلى الصدر الأعظم:

لا رعى الله ما مضى من زمان فيه سادت أسافل الأوغاد
واستبدت عليك مصر الفرنسيس وعاثوا فيها بكل فساد
حلّ فيها منهم شياطين أنس هم بقايا الهلاك من قوم عاد
شوّهوا حسنها بأسود كفر حين جاءوا بجيشهم كالجراد
واستباحوا الأموال والدم والـ عرض وجاءوا بالخسر والإلحاد
ثم زالوا عنها سريعاً وبادوا وعليهم خزى المخاوف بادي
بقدوم الوزير دام علاه مقدم الغيث حل محل البلاد

(١) الجبرتي: مظهر التقديس ص ٣٨٣.

فاكتست مصر بهجة ورناء وأماطت عنها ثياب الحداد[١]

والكتاب من حيث تأليفه برسم الصدر الأعظم بعد التاريخ الرسمي للحملة الفرنسية ، لذا اشتمل على مقدمة ضافية حمّل فيها الجبرتي المماليك وحدهم مسؤولية وقوع البلاد تحت وطأة الاحتلال الفرنسي ، وأرجع ذلك إلى تطرق الخلل إلى دولتهم بسبب ما ابتدعوه من المصادرات التي أفقرت البلاد ، واهمالهم تحصين الثغور حتى داهمها الفرنسيون.

«وأناخت دولة الكفار بكلكلها على هذا القطر العظيم وانتشروا في أرجائه انتشار السم في جسد السليم. . ولقد كادت تعم الرزية وتصير القضية أندلسية لولا عناية من أيّده الله بالنصر والتمكين ، الملك الأعظم والسلطان الأفخم غياث المسلمين. .»[٢] . وأثنى على الحكومة العثمانية بقيادة سلطانها الغازي سليم الثالث التي «توجهت انتصاراً للإسلام عزيمته وتسامت لاستنقاذ مصر من أيدي أولئك الأشرار همته ، فوجه إليها بوجوه دولته وعساكر حمايته كل رئيس بصير بالعواقب ، كما رحب بعودة الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم» لأنه أزال دولة الكفار وجدّد دولة الأخيار وعادت به بهجة

---

(١) الجبرتي: مظهر التقديس ص ٣٦٢ وانظر أيضاً للعطار بعض المقاطع الأدبية في صفحات ٢١٥، ٢١٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٣، ٣١٤، ٣٦٧. .

(٢) الجبرتي: مظهر التقديس ص ٥ ـ ٧.

مصر بعد انمحاقها وأشرقت شمس طلعته على آفاقها فانصلح بعد الفساد حالها»[1] .

ومن ثم كان طابع الكتاب الظاهر هو الإشادة بالدولة العثمانية وذلك بالثناء عليها ، والحط من قدر المماليك الذين انحدرت جماعتهم ، وأهملوا أمر الدفاع عن البلاد ، ثم الحملة الشديدة على فترة الحكم الفرنسي الأجنبي للبلاد ، وإظهار الفرح بزوالهم. وحذف كثيراً من المواقف التي ظن أنها تسيء إلى سمعة العلماء أو تضعف من مركزهم أمام السلطات العثمانية العائدة.

ولعل إسراف الجبرتي في الإشادة بالدولة العثمانية يعود إلى اعتباره رجوع العثمانيين بداية لانبثاق عهد جديد زاهر ونهاية حكم فرنسي ، لم يكن راضياً عليه ، ستستقر بعدها الأمور وتتحسن الأحوال الاقتصادية التي ساءت في أواخر أيام الحملة إلى حد كبير ، دون أن يدري أن السنوات الأربع التي تلت خروجهم من مصر ستكون من أحلك فترات حياتها ، وهذا ما سيدعوه إلى إعادة النظر فيما كتبه. وهناك من يرجع هذا الإسراف إلى خشية الجبرتي من اتهامه بالتعاون مع الفرنسيين بصفته أحد أعضاء الديوان الذي أنشأه مينو. فأراد أن يبرأ نفسه من هذا الاتهام عن طريق الإسراف في مدح العثمانيين وذم الفرنسيين ، أو أنه وجد نفسه مضطراً إلى مجاملة العثمانيين لأنه كان مكلفاً بكتابة تاريخ تلك الفترة بتكليف من الصدر الأعظم وقد كوفىء على هذا العمل مكافأة سخية. ورغم أن «مظهر

---

(١) الجبرتي: مظهر التقديس ص ٩ ـ ١٣ .

التقديس» يمثل في نظر كثير من المؤرخين[1] تاريخاً رسمياً إلاّ أنه يعكس بأمانة موقف المصريين والجبرتي منهم، من هذه الأحداث وكراهيتهم الظاهرة للاحتلال الفرنسي. ومرد هذه الكراهية ما رأوه من استيلاء دولة أجنبية لوطنهم تختلف في دينها وعاداتها وتقاليدها عن المصريين المسلمين. رأوا مع الجبرتي ، تبرج النساء وشرب الخمر علناً وتحويل بعض البيوت إلى أماكن عامة للتسلية والمجون ، تقدم الخمر لروادها ، وتهيء لهم الإختلاط بالنساء ، وفتح الفرنسيون كثيراً من المحال للدعارة في بعض أنحاء القاهرة. وكل هذه العادات والتقاليد الخليعة تتعارض مع تقاليد المصريين المسلمين، لذا سلط الجبرتي عليها قلمه الناقد[2] .

وتأصلت كراهية الفرنسيين في نفسية الجبرتي بسبب فظائعهم التي ارتكبوها في البلاد بسبب مقاومة الشعب لهم، وخاصة أنهم استهدفوا الأزهر بسخطهم، وأنزلوا بأهله أشد ضروب الإنتقام، وكانت أشد فعالهم وقعاً في نفسية الجبرتي هي دخولهم الجامع الأزهر بخيولهم بعد قمع ثورة القاهرة الأولى في ليلة الثلاثاء ١٣ جمادي الأولى ١٢١٣ هـ / ١٣ تشرين الأول ١٧٩٨ م، حيث يصف الجبرتي هذا المشهد بقوله:

«ثم دخلوا أولئك الوعول إلى الجامع الأزهر وهم راكبون

---

(١) محمد أنيس: الجبرتي ومكانته في مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ص ١١٩ .ـ مصطفى محمد رمضان: مخطوطة من تأليف الجبرتي في لندن ص ٢٤٩.

(٢) انظر حديث الجبرتي عن هذه البدع في مظاهر التقديس ص ٣١٠ ـ ٣١١.

الخيول. . . وداس فيه المشاة بالنعالات، وهم حاملون السلاح والبندقيات، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات. . . . وشققوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا بالمسجد وبالوا، وتغوطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروّه من ثيابه وأخرجوه»[1] . ويرجع الجبرتي هذا العمل الهمجي إلى العداوة الدينية فيقول: «وفعلوا بذلك الأزهر ما ليس عليهم بمستنكر لأنهم أعداء الدين وأخصام متغلبون وغرماء متشمّتون».

ونلاحظ أن الجبرتي في كتابه «مظهر التقديس» يشير إلى الفرنسيين في كثير من المواطن بقوله «الكفّار» يقول:

«وأن من أعظم الدلائل على ما رميت به مصر وحلّ به لأهلها تنوع البؤس والأصر بحلول كفرة الفرنسيس» وقوله عن الصدر الأعظم «أنه أزال دولة الكفر» و «عصابة الكفار» وقوله عنهم أيضاً «خسرة الكفار». ولا يذكر إسماً لقائد من قوادهم إلا مصحوباً بوصف مهين كقوله «اللعين دبوي» و «التعس بونابرته» وغير ذلك من الأوصاف التي يلحظها كل ما يتصفح الكتاب[2] .

ويمكن القول بأن رؤية فرنسا غازية قاهرة لمصر، وأعمالها الحربية القاسية التي باشرتها في البلاد، ومخالفة الغزاة للمصريين في

---

(١) مظهر التقديس ص ٨١ ـ ٨٢.
(٢) انظر مثل هذه الأوصاف على سبيل المثال في مظهر التقديس صفحات ٤، ٢٣، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٧٩، ٢٠٧، ٢٥٠.

الدين والتقاليد واقتحامهم للأزهر بخيولهم. كل ذلك أقام حاجزاً من عدم الثقة وسوء النية بين أهل البلاد والغزاة. وقد عبر الجبرتي عن شعور مواطنيه ووقف موقف الرفض لتلك الحملة مهما أبدت من جوانب حضارية نيّرة. وبرزت في كتابه «مظهر التقديس» حركة التمسك بالتبعية العثمانية واعتبار عودتهم بداية لانبثاق فجر جديد.

أما أهمية الكتاب فتكمن في كونه وثيقة تاريخية هامة بالنسبة لفترة من أخطر فترات التاريخ المصري الحديث. ومن خلال دراسة الكتاب دراسة متفحصة متعمقة نلاحظ أن به نقاط قوة وبعض نقاط ضعف. ويمكننا أن نجمل أوجه القوة فيما يلي:

احتوى الكتاب على مجموعة كبيرة من المنشورات والبيانات والمكاتبات الرسمية التي أصدرتها سلطات الاحتلال الفرنسي بمصر. وهذه الوثائق الرسمية التي يقدمها لنا الجبرتي لا يمكن الحصول عليها إلاّ من دار الوثائق الفرنسية. كما أن تدوين الجبرتي لتاريخ تلك الفترة على هيئة يوميات قد أعطانا الكثير من التفصيلات التي لا يمكن الحصول عليها فيما لو كتب كتابه على شكل موضوعات. وقد بذل الجبرتي الكثير من الجهد لتقصي الحقائق وتحري الدقة فيما يرويه من أحداث، في وقت ساد فيه الجهل والفقر الاضطراب وغلبة الشائعات، ومن خلال ما يكتب تظهر شخصيته واضحة، فنراه يشرح ويفصل ويبدي رأيه فيما يقول ويسمع ونحن إذا ما قارنا الكتاب بما كتبه معاصروه عن نفس الموضوع لوجدنا فارقاً كبيراً، فكتابات الشيخ عبد الله الشرقاوي[1] ونقولا الترك

---

(١) كتب الشيخ عبد الله الشرقاوي رسالة في تاريخ مصر سماها «تحفة الناظرين =

اللبناني[1] أقل قيمة من «مظهر التقديس» نظراً لعدم تعمق الأول، ولانحياز الثاني للفرنسيين. وقد حرص الجبرتي على كتابة تاريخ تلك الفترة من أفواه عامة الشعب، فدوّن بأمانة ما كان ينادي به الشعب بأسلوبه ولغته ولم يقم وزناً، وهو من رجال اللغة العربية، للأخطاء النحوية أو اللغوية كما تأثر بأسلوب المقريزي في اهتمامه بتدوين كل ما يتصل بالمكاييل والموازين وأسعار الحاجيات المعيشية وغيرها مما يهم الباحث في الأمور الاقتصادية، وحرص على تدوين اصطلاحات أصحاب الحرف والصناعات وما اصطلحوا عليه من ألفاظ.

أما المآخذ على هذا الكتاب فيمكن إجمالها أيضاً فيما يلي:

كتب الجبرتي «مظهر التقديس» على شكل يوميات، مما يجبر الباحث الذي يجمع مادة لموضوع معيّن أن يتتبّع هذا الموضوع في

= في من ولي مصر من الولاة والسلاطين» وقد طبعت هذه الرسالة في المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨١ هـ في ٧٢ صفحة من القطع الصغير. والشيخ الشرقاوي كان من أكابر رجال مصر في ذلك العصر، فقد كان شيخاً للأزهر، ورئيساً ثلاث مرات للديوان الخصوصي الذي انشأه نابليون انظر: محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر ص ٥٤ وما بعدها.

(١) هو المعلم نقولا بن يوسف بن ناصيف آغا الترك (١٧٦٣ ـ ١٨٢٨) كان شاعراً مكرماً في بلاط الأمير بشير الشهابي الكبير، وضع كتاباً عن تاريخ الحملة الفرنسية في مصر والشام اسمه «ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية» فيه تعصب واضح للفرنسيين انظر عمر عبد العزيز عمر: عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك. دراسة مقارنه منشورات جامعة بيروت العربية ١٩٧٨.

كل ما كتبه الجبرتي من يوميات وهذا شاق وعسير لا سيما إذا كان يمتد لفترة طويلة، كما نلاحظ تفاوت كتابته ضعفاً وقوة، تبعاً للموضوع الذي يعالجه. فإذا كتب عن المعارك والمواقع آثر السجع مع قوة البيان، أما إذا انغمس في كتابة التفصيلات فإن لغته تقترب إلى لغة العامة منها إلى لغة المؤرخ. وهو في ما يكتب لا ينظر إلى الحوادث نظرة مجردة عن العاطفة الدينية أو الوطنية فهاتان العاطفتان تتحكمان في كتابه «مظهر التقديس» بصورة أوضح مما هي عليه في كتابه الآخر «عجائب الآثار». ففي مظهر التقديس كان الجبرتي يرى كل ما هو فرنسي كريهاً، ويكفي أن يكون الحكم غير إسلامي ليحمل عليه الجبرتي[1] وإذا كان الجبرتي قد ذكر في مقدمة «عجائب الآثار» بأنه لم يقصد بكتاباته «خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسي أو غرض جسماني»[2]، فإن هذا القول يقتصر على هذا الكتاب فحسب ولا ينسحب على مظاهر التقديس الذي قدمه إلى يوسف باشا الصدر الأعظم في أثناء وجوده في مصر. وتحامل فيه بشكل واضح على الفرنسيين وحمل بعنف على المماليك الذين استناموا اتكالاً على شجاعتهم ويحملهم المسؤولية الكاملة عن سقوط مصر غنيمة سهلة بيد الفرنسيين، دون أن يتطرق قط إلى ذكر

---

(١) غير الجبرتي آراءه هذه في كتابه الأخير «عجائب الآثار» وحمل على الدولة العثمانية ثم اثنى على الفرنسيين في عدة مواضع بعد أن خاب أمله في أن تسود العدالة بقدوم العثمانيين.

(٢) عجائب الآثار ١/ ١٢.

اتصاله بالفرنسيين وحضوره حفلاتهم ومشاهدته لتجاربهم العلمية، كما أنه لم يذكر أنه كان عضواً في الديوان، مما يفقد كتابه الكثير من موضوعيته.

٣ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار

يعتبر كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» من أكبر أعمال الجبرتي ومن أعظمها شأناً، بل أنه أعظم تواريخ مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين أي القرنين الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلاديين.

أ ـ مخطوطات الكتاب

- يوجد في دار الكتب المصرية من «عجائب الآثار» إحدى عشرة مخطوطة، منها أربعة كاملة وباقيها أجزاء وكراسات ناقصة.

١ ـ نسخة في أربعة مجلدات، الأول والثاني بخط الحاج محمد حسين بن أحمد، فرغ من كتابتهما في سنة ١٢٧٢ هـ ، وبالجزء الرابع خرم، رقمها ٤٦٦ تاريخ.

٢ ـ نسخة من أربعة أجزاء في خمسة مجلدات، مخطوطة بقلم أحمد بن موسى الشاهد. الجزء الأول في مجلدين فرغ من كتابته في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر شوّال سنة ١٢٨٩ هـ . والثاني والثالث والرابع في ثلاثة مجلدات. فرغ من الثاني في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٩٠ هـ ، ومن الثالث في يوم الأحد الثامن عشر من شهر شوّال من السنة المذكورة، ومن الرابع في يوم السبت السابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٩ هـ ورقمها ١٤٢٤ تاريخ.

٣ ـ نسخة من أربعة أجزاء في أربعة مجلدات، وهي مكتوبة بخطوط مختلفة؛ الأول والثاني بخط محمد أحمد الشافعي. والثالث بخط أحمد يونس أبي التيسير فرغ من كتابته في شهر ذي القعدة سنة ١٢٨٧ هـ ، والرابع تمت كتابته في يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٩ هـ ، ولم يذكر اسم الكاتب، ورقمها ١٤٢٥ تاريخ

٤ ـ نسخة في أربعة أجزاء، في أربعة مجلدات تمت كتابتها في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٢٦٢ هـ . وهي منقولة عن نسخة بخط المؤلف رقمها ٢٢٨٧ تاريخ. وكان هذا المخطوط ملكاً لمحمود باشا سامي البارودي حيث كتب في الصفحة الأولىَ من كل جزء: «من كتب الفقير إليه تعالى محمود سامي الشهير بالبارودي» تاريخ ١٢٨٥ هـ ، ثم ختم باسم «محمود سامي».

٥ ـ الجزء الثاني من نسخة في مجلد، تم كتابته في شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٢ هـ ، أي بعد وفاة الجبرتي بإحدى وعشرين سنة. ويبتدىء من سنة ١١٩٠ هـ ، وينتهي إلى سنة ١٢١٢ هـ. وفي صفحته الأولى أن علي فهمي بن رفاعه بك رافع الطهطاوي طالعه كله سنة ١٢٧٨ هـ. رقمه ٢٧٣ تاريخ.

٦ ـ الجزء الثالث من نسخة في مجلد. ويبتدىء من سنة ١٢١٣ هـ، وينتهي إلى سنة ١٢٢٠ هـ رقمه ١٧٤ تاريخ.

٧ ـ الجزءان الثالث والرابع من نسخة أخرى، في مجلدين. يبتدىء الثالث من سنة ١٢١٣ هـ ، وينتهي الرابع إلى آخر الكتاب.

تمت كتابته في أواخر شهر شوال سنة ١٢٩٦ هـ. رقم ١٤٢٦ تاريخ.

٨ - الجزءان الثالث والرابع من نسخة أخرى في مجلدين مخطوطين بخطوط مختلفة يبتدىء الثالث من سنة ١٢٢١ هـ وينتهي الرابع الى أخر الكتاب وهو بخط السيد يوسف فرغ من كتابته في يوم الجمعة التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٢ هـ برقم ١٤٢٧ تاريخ.

٩ ـ الجزءان الأول والثاني من نسخة أخرى في مجلدين مخطوطين بخط رضوان بن مصطفى الدمهوجي. فرغ من كتابة الجزء الثاني في ليلة الثلاثاء لتسع وعشرين خلت من شهر صفر سنة ١٢٩٠ هـ. وينتهيان إلى سنة ١٢١٢، برقم ١٤٢٨ تاريخ.

١٠ ـ قطعة من نسخة أخرى في مجلد مخطوط ناقصة من أولها وآخرها، وهي من أول الكتاب رقمها ٢١٢٩ تاريخ.

١١ ـ قطعة من الجزء الأول من نسخة أخرى. تبتدىء بأثناء ترجمة الشيخ علي بن تاج الدين محمد بن عبد المحسن بن محمد بن سالم القلعي الحنفي مجلدة، تمت كتابتها في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٧٨ هـ.

ـ في المكتبة الأزهرية:

١ ـ نسخة في أربعة مجلدات برقم (٢٦٤) أباظه ٦٥٧٠.

٢ ـ نسخة أخرى في ثلاثة مجلدات بخط خليل بن إبراهيم العجوز سنة ١٢٨٩ هـ، برقم (٥٨٤) ٨٥٣٧.

٣ ـ نسخة أخرى في سبعة مجلدات برقم (١٣٠٦) ٢١٥٩٤.

ـ في مكتبة المتحف العراقي.

١ ـ مخطوطة تحت رقم ١٦٣٦ وقد جاء في الورقة الأولى من هذا المخطوط القول «هذا المخطوط بخط مؤلفه الجبرتي وهو يختلف كثيراً عن المطبوع. لأنه لما طبع حذف منه أشياء كثيرة ما كانت توافق آراء أهل الحل والربط فتصرفوا فيه... أما هذا المخطوط فهو المعول عليه إذ هو الأصل» .

وجاء في آخر المخطوط : «قاله بفمه وحرره بقلمه الفقير الحقير راجي رحمة ربه، الغني، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي غفر الله له وعامله بلطفه».

٢ ـ نسخة في مجلد مخطوط في ٤٠٥ صفحات بخط المؤلف وهي غير كاملة. ويوجد عنها صورة في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية (انظر فهرست المخطوطات التاريخية في المتحف العراقي ببغداد في مجلة سومر المجلد ١٣ سنة ١٩٥٧ ص ٦٣ .

ـ نسخة بانكيبور بولاية بيهار الهندية (مجموعة خدا بخش) الفهرست الجديد ج ١٥ رقم ١٠٧٦ / ٨٣.

ـ نسخة رامبور في الهند الفهرست القديم ج ١ ص ٦٤١ (٨/١٦٥) .

ـ نسخة بطرسبورغ (لينيغراد) فهرست روزن ص ٦٠ . وهي النسخة المذكورة في الفهرست الجديد باللغة الروسية للمحفوظات العربية المتعلقة بالتاريخ ص ٤٠ رقم ٩٦ (٧٣٢) المطبوع في روسيا سنة ١٩٦٥ . ويذكر بروكلمان. (الملحق ٢ ص ٧٣٠) أن في بطرسبورغ (جيرحاس) نسخة رقمها ٨٤٠. وقد كتب كراتشوفسكي في كراسات الأكاديمية الروسية سنة ١٩٢٧ ص ١٦٢ مقالة عنها.

- نسخة برلين (فهرست اهلواردت رقم ٩٤٨٧/ ٩٠.
- نسخة ميونيخ رقم ٤٠٠.
- نسخة المتحف البريطاني بلندن رقم ١٤٩٧/٩.
- نسخة المتحف البريطاني (ملحق) رقم ١٢٨٠ / ٢.
- نسخة مانشستر رقم ٢٧٨/ ٢٨٠.
- مجموعة منجانا المحفوظة في كلية سيلي أوك في برمنغهام رقم ٩٠٨/١١. وهي نسخة في أربعة مجلدات كتبت سنة ١٢٩٦ عن نسخة بخط المؤلف.
- نسخة في المكتبة الأهلية في باريس برقم ١٨٦١/١٨٦٣ في ثلاثة مجلدات.
- نسخة في المكتبة الأهلية في باريس برقم ١٨٦٤/١٨٦٦ في ثلاثة مجلدات، وهي منسوخة عن نسخة المؤلف.
- نسخة في مكتبة جامعة ليدن برقم ٩٨٨، بخط المؤلف، رقمها الحالي ٢٤٣٧ شرقي (فهرست مخطوطات جامعة ليدن عمله فورهوف ص ٣).

ب ـ طبعات الكتاب

طبع كتاب الجبرتي لأول مرة في عام ١٨٧٨ م عندما قام أديب اسحق بنشر الجزء الثالث الذي كتبه الجبرتي عن الحملة الفرنسية مستقلا بعنوان «تاريخ الفرنسيين في مصر» في جريدة مصر بالاسكندرية[1] سنة ١٢٩٥ هـ/١٨٧٨ ويبتدىء بسنة ١٢١٣ هـ.

(١) محمد رشاد عبد المطلب: مؤلفات الجبرتي مخطوطة ومطبوعة ضمن دراسات عن الجبرتي ص ١٧٨.

ـ في عام ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠، أي بعد تولي الخديوي توفيق عرش مصر مباشرة، طبع الكتاب لأول مرة بالمطبعة الأميرية ببولاق، وطبع أولاً الجزءان الثالث والرابع، وفيه بعض من تاريخ محمد علي، ثم تلاهما الجزءان الأول والثاني.
وقد قارن موريه (Moreh) طبعة بولاق بمخطوطات كيمبردج ودار الكتب الأهلية بباريس والمتحف البريطاني فوجد أن هناك فقرات عديدة في طبعة بولاق غير موجودة في المخطوطات المذكورة. هذا فضلاً عن وجود اختلافات كثيرة في الأسلوب والقواعد بين هذه المخطوطات وطبعة بولاق، مما استنتج معه أن ناشر طبعة بولاق قد استخدم عدة مخطوطات لعجائب الآثار دون أن يذكر ما إذا كان أحدها بخط المؤلف. واتضح له من المقارنة أيضاً أن نصوص طبعة بولاق ونصوص بعض المخطوطات التي أشار إليها في الهامش تبيّن أن بعض المخطوطات التي كانت لدى الناشر تضم نصوصاً مختلفة، وأن بعضها بيانات أكثر من البيانات الموجودة بمخطوطات كيمبردج. كذلك بيّنت الدراسات المقارنة أن الناشر لطبعة بولاق قد صحح بنفسه الأخطاء النحوية والأسلوب الركيك وحتى النصوص والوثائق التي نقل منها الجبرتي بدقة، رغم تأكيده بأنه نقل بأمانة ما دوّنه الجبرتي، وكذلك النصوص والوثائق التي نقل عنها المؤلف[1].

---

(١) محمد محمود السروجي: مرجع مذكور ص ٢٢٢.

- طبع بهامش كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ هـ / ١٣٠٢ هـ بالقاهرة.
- طبعة المطبعة الشرفية بالقاهرية في القاهرة في أربعة أجزاء سنة ١٣٢٢ - ١٣٢٣ هـ .
- طبعة لجنة البيان العربي في سبعة أجزاء بتحقيق حسن محمد جوهر ، عبد الفتاح السرنجاوي ، عمر الدسوقي والسيد إبراهيم سالم ، القاهرة ١٩٥٨/١٩٦٧ ، وقد ألحق بكل جزء منها فهارس عامة له .
- طبعة دار الجيل في بيروت في ثلاثة مجلدات تضم الأجزاء الأربعة .
- طبعة دار الفارس في بيروت - مطبعة سبها، في ثلاثة مجلدات تضم الأجزاء الأربعة.

ج - ترجمات الكتاب :

قامت لجنة تتكون من شفيق منصور بك، وعبد العزيز كحيل بك. وجبرائيل نقولا كحيل بك، واسكندر عمون أفندي بترجمة «عجائب الآثار إلى اللغة الفرنسية ونشر في تسعة أجزاء وذلك فيما بين عامي ١٨٨٨ م و ١٨٩٦ م تحت عنوان

Merveilles biographiques et historiques ou chroniques du Cheikh Abd- el- Rahman el- Djabarti.

وقد طبعت هذه الترجمة في المطبعة الأميرية. وقد ذكر المترجمون في مقدمتهم للترجمة الفرنسية أن نوبار باشا هو الذي أوحى إليهم بفكرتها، وأن يعقوب أرتين باشا كان معيناً لهم في القيام بالمشروع.

- ترجمة روسية سنة ١٩٦٢، فقد ترجم المستشرق أ. م فيلتسنكي الجزء الأول من المجلد الثالث (١٧٩٨ - ١٨٠١ م)

من اللغة العربية إلى اللغة الروسية. وقد صدر من معهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفياتي، ونشرته دار النشر للآدب الشرقية. موسكو.

د ـ فهارس الكتاب :

- أنجز توفيق أسكاروس رئيس القسم الافرنجي بدار الكتب المصرية فهرست عجائب الآثار ويحتوي على فهرست بأسماء العلماء الموجودين في الكتاب. وهو مرتب على الحروف، وهو محلق بالنسخة المخطوطة في دار الكتب المصرية برقم ٤٨٥ تاريخ.
- أنجز أحمد تيمور فهرست عجائب الآثار. وهو مخطوط محفوظ في مجموعته التي آلت إلى دار الكتب المصرية.
- أنجز غاستون فييت (Gaston Wiet) فهرست عجائب الآثار بالفرنسية، ونقله إلى العربية وراجعه وأشرف على طبعه عبد الرحمن زكي. وقد صدر ضمن مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ونشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٥٤ م.
- فهرست مفصل لكل جزء من أجزاء طبعة لجنة البيان العربي التي صدرت في سبعة أجزاء. القاهرة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٧ م.

هـ ـ أقسام الكتاب: يتألف كتاب «عجائب الآثار» من الأقسام التالية:

١ ـ تمهيد تحدث فيه الجبرتي عن التاريخ وفائدته.

٢ ـ مقدمه ضافية تفلسف فيها الجبرتي في تقسيم الطبقات ، ثم بسط النصيحة للحكام بمراعاة العدل وحسن السياسة. وفي التمهيد والمقدمة يعرض المنظور الإسلامي للتاريخ باعتباره مظهراً تتبدى من خلاله الإرادة الإلهية. ويحض الناس على الاعتبار بذكر سابقيهم.

٣ ـ الجزء الأول: يبدأه الجبرتي بالمامة سريعة بتاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى يدخل مفصلاً في العصر العثماني وينتهي

الجزء الأول عند نهاية مشيخة محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٩ هـ.

- الجزء الثاني: يتحدث فيه عن مصر في عهد إبراهيم بك ومراد بك حتى آخر عام ١٢١٢ هـ/١٧٩٨ م.
- الجزء الثالث: ويختص بأحداث الحملة الفرنسية حتى تولية محمد علي ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م.
- الجزء الرابع والأخير: يتحدث فيه عن السنوات الخمس العشرة الأولى من حكم محمد علي حتى ١٢٣٦ هـ/١٨٢١.

و- أهمية الكتاب: لا شك ان كتاب «عجائب الآثار» يحتل منزلة خاصة بين المؤلفات التي أرّخت لمصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على وجه الخصوص، ويمكننا أن نوضح وجوه الأهمية في النقاط التالية.

١ - تأريخ الحياة الاجتماعية في مصر، وبالذات مجتمع العلماء والمجتمع المملوكي. وهي من الخصائص التي يكاد ينفرد الجبرتي بالعناية بها، واهتمامه بها كبير، كماً وكيفاً، وهي من الميزات التي تجعل لتاريخه أهمية خاصة.

٢ - تصويره للصراع الدامي بين المماليك الذين حكموا مصر في ظل السيادة العثمانية والذي طبع تاريخ مصر في تلك الفترة بطابع العنف، إذ اشتدت بينهم الخصومة، وحدثت بينهم معارك كثيرة أضرّت بالبلاد ضررا بليغاً.

٣ - تسجيله لأحداث الحملة الفرنسية وملاحظته القوية لآثارها وما أحدثته من تطورات نتيجة لوجود الفرنسيين الغربيين المسيحيين في مجتمع شرقي إسلامي له تقاليده المغايرة تماما لتقاليدهم. ومن أبرز ما سجّله تأثر بعض النساء المصريات بالفرنسيات وظاهرة الاختلاط العلني بين الرجل والمرأة وإدخال المسرح والتمثيل إلى مصر لأول مرة وإدراك الجبرتي قيمة العلم وأهمية

الأجهزة العلمية التي جاءت مع علماء الحملة. ووصفه للتجارب العلمية التي أجريت أمامه وصفاً دقيقاً.

٤ - تصوير الجبرتي أنواع المظالم التي عاناها المصريون خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر من حكامهم المستبدين الجهلة، ومقاومتهم لهؤلاء الحكام البغاة، وكيف كان شيوخ الأزهر وسطاء لوقف طغيان المماليك، وكيف كان يحتل الأزهر مكانة مرموقة في الحياة المصرية. وفي ثنايا كتاباته نلمس تتبعه لأصداء ثورة القاهرة الأولى وثورتها الثانية في الأقاليم. وما أظهره شعب مصر من ضروب المقاومة في كل مكان وبشتى الوسائل.

٥ - الصورة الأخرى لعصر محمد علي باشا، وتعتبره واحداً من أولئك المصلحين العصريين الأصلاء الذين يشغلون في تاريخ «دار الإسلام» نفس مكانة بطرس الأكبر في روسيا، وعليه فإن أهمية الجبرتي تكمن في أنه أعطانا، فيما كتبه، الصورة الأخرى، أو الوجه الآخر لعصر محمد علي، وهو الوجه القاتم، وبذلك تكتمل صورة هذا الحكم بوجهيها.

٦ - أضافت التراجم التي اهتم بها الجبرتي مادة تاريخية جديدة أكملت بعض النقص في الجوانب التاريخية أثناء سرده لأحداث مصر. من هذه التراجم نستطيع أن نتعرف على حياة الجبرتي نفسه، بل في تراجمه للعلماء الذين تتلمذ عليهم أو الذين عاصرهم، أو أختلط بهم، يعطينا صورة واضحة وصادقة للبيئة العلمية.

ز - مقارنة بين «عجائب الآثار» «ومظهر التقديس»:

من خلال المقارنة بين كتابي الجبرتي «عجائب الآثار» و «مظهر

التقديس» يتبيّن تفوق الكتاب الأول في قيمته من عدة وجوه يمكن إجمالها في النواحي التالية:

- إن عجائب الآثار مؤلف ضخم يتناول ثلاثة عصور من تاريخ مصر؛ مصر العثمانية، والحملة الفرنسية، وعصر محمد علي. فهو أعم وأشمل من «مظهر التقديس» الذي اقتصر على فترة الحملة الفرنسية فقط.
- أن «عجائب الآثار» كان التجربة التاريخية الثالثة للجبرتي، فقد سبقته تجربتان في التأليف التاريخي؛ الأولى كتابه تاريخ «مدة الفرنسيس بمصر»، والثانية «مظهر التقديس بذهاب الفرنسيس»، وقد استفاد فعلاً من هاتين التجربتين في كتابه «عجائب الآثار».
- كتب الجبرتي «مظهر التقديس» في أعقاب خروج الفرنسيين من مصر، بأيعاز من الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا، وخوفاً من اتهامه بالتعامل مع الفرنسيين سيما وأنه كان عضواً في الديوان الذي أنشأه الجنرال مينو. وقد سيطر عليه هذان الإعتباران أثناء كتابته، فجاء في الكتاب الكثير من المدح للعثمانيين، والذم والسباب للفرنسيين. بينما يخلو كتاب عجائب الآثار من كل ذلك.
- كتب الجبرتي «عجائب الآثار» بعد أن جلت الحملة الفرنسية، وساد مصر صراع شديد بين القوى المختلفة ممثلة في الوجود الإنكليزي، والتركي، والمملوكي، والمصري. وقد بدأ الجبرتي يدرك ويقيّم أحداث الحملة الفرنسية، فأصبح بعد الحملة أدق وأكثر نقداً لسير الحوادث ورجالها ممّا كان عليه قبل الحملة.
- كان إتجاه الجبرتي في تسجيل يومياته عن الحملة في مظهر التقديس يختلف اختلافاً بيناً عن اتجاهه في «عجائب الآثار» حتى أن كلاً منهما يمثل تفكيراً سياسياً مغايراً.
- عالج الجبرتي بروح الإنصاف والحياد في كتابه «عجائب الآثار» أحداث الحملة الفرنسية، فهو مثلاً يذكر بالإعجاب موقف السلطات الفرنسية وعدالتها في محاكمة سليمان الحلبي، قاتل

الجنرال كليبر، فرغم ضبطه متلبساً بجريمته «لم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار، بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم ساري عسكرهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة، وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول. ومرة بالعقوبة، ثم أحضروا من أخبر عنهم، وسألوهم على إنفرادهم ومجتمعين، ثم نفذوا العقوبة بما اقتضاه التحكيم....»[1]. ويتأسف الجبرتي لما وصلت إليه حالة البلاد بعد ذلك من فقدان الأمن والعدالة ويستطرد قائلاً «بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام».

- يوجد بمظهر التقديس فقرات تخالف ما جاء في عجائب الآثار (٣١ فقرة). منها إثنتان وعشرون فقرة فيها سب للفرنسيين، وثلاث عشرة فقرة مقتضبة في عجائب الآثار، وجاءت مفصلة في مظهر التقديس، بينما تشابهت عشر فقرات فقط في كل من «عجائب الآثار» و «مدة الفرنسيس»، ومن ثم فالتشابه بين مدة الفرنسيس، ومظهر التقديس، أكثر مما بين مظهر التقديس وعجائب الآثار[2].

٤ ـ مختصر تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب:

المعروف بتذكرة داوود في الطب، تأليف داوود بن عمر الأنطاكي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٨ هـ.

مخطوطاته:

- دار الكتب المصرية: نسخة مخطوطة في مجلد بقلم معتاد بخط

---

(١) محمد أنيس: الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار (مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ج ١، ريار ١٩٥٦).

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٣/١٢٢.

هلال بن محمد بن هلال تمّت كتابته في الحادي عشر من جمادي الثانية سنة ١٢٣٦ هـ برقم ١٣٦ طب.

- المكتبة الأزهرية: نسخة في مجلد بقلم معتاد بخط عبد الرحمن بن ناصر تمت كتابته سنة ١٢٥٩ هـ، رقم ١٢٩ (حسونه ١٣٠٣١).

٥ - دستور تقويم الكواكب السبعة والجواهر والأهلة والتواريخ الثلاثة ومواسمها وتواقيعها في سنة ١٢٠٩ هـ. حساب الشيخ عبد الرحمن الجبرتي: يوجد مخطوطاً في نسخة في مجلد واحد بقلم معتاد برقم ٨٦ ميقات في دار الكتب المصرية.

الفصـل الرابع
الجبـرتـي المـؤرخ

أولاً: تدهور علم التاريخ في عصر الجبرتي

لا شك في أن العصر السابق للعصر العثماني كان عصر الإشراق الفكري في تاريخ المجتمع الإسلامي كله، بعد سقوط بغداد في يد المغول وخروج المسلمين من الأندلس. غير أن الحياة الفكرية في مصر تعرضت لأزمة في نهاية العصر المملوكي قبل دخول العثمانيين. فأخلدت هذه الحركة إلى الركود، وفقدت روح الإبداع والتجديد. ثم جاء الفتح العثماني فلم يولد لدى المثقفين ردود فعل إنتاجية خصبة، كما لم يكن لدى العثمانيين رصيد حضاري وثقافي يلقحون به الحياة الفكرية في الأقطار العربية الخاضعة لهم، ومنها مصر، بما يؤدي إلى قيام علاقات ثقافية بين مختلف اقطارهم، أكثر توثيقاً مما كان قبل الفتح العثماني. فمالت الحياة الفكرية من ركود إلى ركود.

والواقع أن جمود الحياة الفكرية وركود الحركة العلمية لا يرجع إلى تناقص عدد المدارس والمدرسين أو نقص في الأوقاف المحبوسة على هذه المؤسسات العلمية، وانما يرجع إلى ضعف المستوى

العلمي نفسه، فالركود كان مخيماً على الحياة العقلية والعلمية، ولما جاء الفتح العثماني لم يحرك الأجواء العلمية الساكنة. وليس الذنب ذنب العثمانيين وحدهم، فهم لم يقفوا في وجه العلم والتعلّم ولم يحولوا دون الابتكار والتأليف، بل انهم تركوا الحياة العلمية تسير في مجراها المألوف القديم، فأبقوا المدارس وأوقافها، وفتحوا مدارس جديدة لرفع المستوى العلمي والديني. ولذا لا نستطيع ان نحمل الاحتلال العثماني وحده قسط المسؤولية عن ضعف الحياة العقلية وإنما تشاركه في تحملها النزعة النقلية والمحافظة، وفقدان روح الابتكار والخلق. ومن مظاهر هذا الضعف انتشار الطرق الصوفية وزحف التصوف على الحياة العقلية، بل والحياة الاجتماعية. حتى إذا تحولت افكار المتصوفة من السمو الفلسفي إلى طقوس الدراويش وكرامات الأولياء، أصبح الناس يعتقدون بالشعوذة والخرافات، وغدا كل أبله ولياً وصالحاً، وكل مجذوب شيخاً تلتمس بركاته[١] . وعمل الشيوخ الأحجية والتعاويذ[٢] وانحط مستواهم الفكري إلى مستوى العامة.

---

(١) أسهب الجبرتي في وصف مواكب هؤلاء المنحرفين من دعاة التصّوف وقدرتهم على اجتذاب الناس من شتى الطبقات رجالاً ونساء وأطفالاً انظر على سبيل المثال «حادثة الشيخ صادومة» في حوادث ١١٩١ هـ ، «وشيخ مدينة بنها» في حوادث ١٢٢٢ هـ والشيخ علي بكري والشيخة أمونة» إلخ...

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٥١١/١.

ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية أيضاً التركيز بصفة مطلقة على العلوم النقلية دون العلوم العقلية، ولا شك أن العثمانيين كان لهم أثر في ذلك، فقد عملوا على تشجيع هذا التيار تدعيماً للإسلام، والسنة بوجه خاص، وكانت النتيجة اهمالاً كاملاً للعلوم العقلية، ومنها التاريخ، فجمدت القرائح وانحطت الآداب عموماً، وندر نبوغ العلماء والمفكرين أو المستنبطين فيها. ولكن هذا الانحطاط في الحياة الفكرية لم يعن قلة الانتاج وتوقف حركة التأليف التاريخي، بقدر ما يعني انحطاط اسلوب الكتابة الذي تردى حتى أوشك أن يصبح عامياً، قليل الأصالة والابتكار، ضحل الأفكار. مفتقراً إلى التنسيق والارتباط بين أقسامه، بل أن الخراب أخذ يزحف على المدارس القديمة التي كانت منائر العلم في الماضي، فضلاً عن ميل معظم رجال العلم إلى التدليس وامتداح رجال السلطان مهما خلّوا وأفسدوا. وفي أحوال كهذه لا يمكن أن تزدهر الحياة الفكرية والأدبية، أو ينشأ ابتكار وأصالة في البحث التاريخي، فتدهور التاريخ يعكس في الحقيقة تدهوراً في الحياة العلمية ولا سيما فيما اصطلح على تسميته بالعلوم العقلية.

وفي مقدمة العوامل التي أدت إلى انحطاط علم التاريخ تسرب الكتب التاريخية من مصر، والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الذي ينتمي إلى أواخر العصر العثماني يؤكد هذا السبب[١] . فبعد ان عدد كتب

---

(١) عجائب الآثار ١/ ١١.

التاريخ التي يعرفها نراه يقول: «وهذه صارت أسماء من غير مسميات، فأنا لم نرّ من ذلك كله إلاّ بعض أجزاء مدشته بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدي الصحّافين، وباعها القَوَمة والمباشرون ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان».

كذلك أدت كثرة الفتن في العصر العثماني والنزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية إلى إتلاف الكثير من المكتبات. وفي ذلك يقول الجبرتي عند حديثه عن تدهور التاريخ في عصره: «ثم ذهب بقايا البقايا في الفتن والحروب، وأخذ الفرنسيس ما وجدوا إلى بلادهم. ولما عزمت على ما كنت سوّدته وأردت ان أصله بشيء قبله، فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سوّدها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب، مختلة التهذيب والترتيب، وقد اعتراها النقص في مواضع من خلال بعض الوقائع. وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع، ولكنه على نسق في الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبي عبد الغني[١] مبتدئاً فيه من وقت تملك بني عثمان للديار المصرية، وينتهي كفيره مما ذكرناه خمسين ومائة وألف هجرية، ثم ان ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب وزلت به القِدم،

---

(١) رغم اعجاب الجبرتي بكتاب أحمد جلبي فقد سكت عن الترجمة له، واعتبره شخصاً مجهولاً كما إن أحمد جلبي لم يترجم لنفسه أو لأسرته في كتابه المخطوط «أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات» أنظر: عبد الرحيم عبد الرحيم: عبد الرحمن الجبرتي وأحمد جلبي بن عبد الغني (دراسة مقارنة) صفحة ١٨٣ وما بعدها.

ووقع في صندوق العدم. ومن ذلك الوقت إلى وقتنا هذا لم يتقيّد أحد بتقييد، ولم يسيطر في هذا الشأن شيئاً يفيد، فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين. وما انتقش على أحجار ترب المقبورين». هذا وأن اضطرار الجبرتي إلى الاعتماد على دفاتر الكتبة والمباشرين. إلى غير ذلك، دليك على ندرة المراجع التاريخية أو اختفائها في عصره.

ويشير الجبرتي في موضع آخر إلى سبب آخر مهم لتدهور علم التاريخ في ذلك الوقت، ويتمثل بعدم اهتمام أهل العصر بكتابة ودراسة التاريخ ونظرة عدم التقدير لهذا النوع من المعرفة فهو يقول:

«ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني، تعتني بتدوينه سلفاً عن سلف، وخلفاً بعد خلف، إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه، وتركوه وأهملوه، وعدّوه من شغل البطّالين، وقالوا أساطير الأولين، ولعمري أنهم لمعذورون، وبالأهم مشتغلون، ولا يرضون لأقلامهم المتعبة في مثل هذه المنقبة. فأن الزمان قد انعكست احواله، وانخرمت قواعده في الحساب فلا تضبط في دفتر ولا كتاب. وأشغال الوقت في غير فوائده ضياع. وما مضى وفات ليس له استرجاع إلاّ أن يكون من قبل الحقير (أي الجبرتي) منزوياً في زوايا الإهمال والخمول، متجمعاً عما شغلوا به من الأشغال فيشغل نفسه في أوقات خلواته، ويسلي وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته..»[1].

---

(١) عجائب الآثار ١/٩.

ولم يكن الجبرتي وحده يشكو من ذلك، فهناك مؤرخ في الشام وهو المرادي صاحب كتاب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» كان يشكو من ظاهرة تدهور علم التاريخ. فيقول عندما زار الاستانة:

«ثم جرى ذكر التاريخ وفقدانه في هذا الوقت، وعدم الرغبة إليه من إبناء الدهر، مع انه المادة العظمى في الفنون كله»[1].

وهكذا ضعفت مدرسة التاريخ المصري بصفة عامة في العصر العثماني، هذا الضعف بدأ بعد ابن إياس، حيث خلت، أو كادت، الفترة الأولى من الحكم العثماني، من المؤرخين الذين كان في قدرتهم ان يقدموا صورة لتحول المجتمع المصري من مملوكي إلى عثماني، أي في القرن العاشرالهجري،فيما شاهد القرن الحادي عشر نهضة تاريخية، أو حركة بعث في حدود ضيقة، ولا سيما في التراجم ثم عاد الموقف إلى الركود زمن الجبرتي وقبله بقليل. وحتى حركة البعث والإحياء هذه فكانت ضعيفة قياساً على مدرسة التاريخ المصري التقليدية في العصر المملوكي.

وهكذا يبدو الجبرتي وسط مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني عملاقاً، خرج من لا شيء ولا يرجع إلى شيء، تستمد كتب المؤرخين الأخرين أهميتها من تاريخه، فهي تعتبر مكملة لتاريخ الجبرتي. ومن هذه الزاوية فقط تبدو لها بعض الأهمية.

---

(١) انظر ترجمة المرادي في عجائب الآثار ٢/ ١٤٠ - ١٤٢ وفيات ١٢٠٦ هـ.

ثانياً: مسيرة الجبرتي التاريخية:

سلك عبد الرحمن الجبرتي بدايةً مسلك والده الشيخ حسن الجبرتي في دراسة علوم الدين، على أمل أن يخلفه في التدريس بالجامع الأزهر. كما اهتم مثله بعلوم الفلك والرياضيات إلى جانب دراسته الدينية. ولم يكن من اهتماماته كتابة التاريخ، لولا أن شاءت الصدف ذلك. فقد نزل بأرض مصر السيد أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي[1] . وهو من كبار علماء عصره وأصبح الجبرتي من تلامذته. وفي عام ١٢٠٣ هـ كلف الزبيدي تلميذه كتابة تراجم لأعلام القرن الثاني عشر من مصريين وحجازيين، وكان الزبيدي قد كُلِّف بدوره بهذا العمل من قبل الشيخ محمد خليل المرادي الحسيني مفتي دمشق[2] الذي كان مشغولاً بالترجمة لأعلام المائة الثانية عشرة تمهيداً لإصدار كتابه «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر». ولما كانت هذه الدراسة تتطلب منه جهداً ضخماً فقد تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره. ويروي الجبرتي قصة هذه التراجم، أثناء ترجمته للشيخ المرادي فيقول:

«وكان هو السبب الأعظم الداعي لجمع هذا التاريخ على هذا النسق، فإنه كان راسل شيخنا السيد محمد مرتضى الزبيدي والتمس منه نحو ذلك، فأجابه لطلبته ووعده بأمنيته، فعند ذلك تابعه

---

(١) ترجمة الزبيدي في عجائب الآثار ٢/١٠٣ ـ ١١٤ وفيات ١٢٠٥ هـ .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ١٤٠ ـ ١٤٢.

بالمراسلات، وأتحفه بالصلات المترادفات. وشرع شيخنا المرحوم في جمع المطلوب بمعونة الفقير. ولم يذكر السبب لذلك. وجمع الحقير أيضاً ما تيسر جمعه، وذهبت به يوماً وعنده بعض الشاميين فأطلعته عليه، فسر بذلك كثيراً وطارحني وطارحته في نحو ذلك بمسمع من المجالس. . . وتنوسي هذا الأمر شهوراً».

وواضح مما تقدم أن الزبيدي لم يطلع الجبرتي على سر اهتمامه بهذه التراجم، والتي بلغ ما كتبه منها نحو عشرة كراريس مرتبة على حروف الهجاء سمّاها «المعجم المختص» وقد ذكر فيه حسبما يروي الجبرتي، شيوخه ومن أخذ عنه أو جالسه من رفيق وصاحب صالح من المشاهير. وقد وصف الجبرتي هذا «المعجم المختص» بقوله: « . . وغالب ما فيها آفاقيون ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحياء والأموات، وأجمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعاظم ونحوهم».

وفي عام ١٢٠٥ هـ توفي الشيخ الزبيدي بالطاعون الذي نزل بمصر، فباعت زوجته وأقاربها متروكاته بما فيها كتبه وقد اشتراها الجبرتي وفيها «المعجم المختص». وفي أواخر السنة نفسها وصله من الشيخ المرادي كتاب مقرون بهدية ويستدعي تحصيل ما جمعه السيد (الزبيدي) من أوراقه وضم ما جمعه الفقير (أي الجبرتي) وما تيسّر ضمه وارساله»[1] .

---

(١) عجائب الآثار ١٤١/٢.

ولقد وصل هذا الكتاب قبل أن يكون الجبرتي قد ظفر بأوراق الشيخ الزبيدي من ورثته وحيث أدرك من هذا الخطاب السبب الذي حدا بأستاذه إلى الاهتمام بترجمة أعلام المائة الماضية (الثاني عشر الهجري) ألا وهو تلبية رغبة الشيخ المرادي. فلما ظفر الجبرتي بأوراق الزبيدي، بدأ بدراسة التراجم التي كان قد أعدها.

ثم يروي الجبرتي بعد ذلك كيف أن خطاب الشيخ المرادي قد شحذ همته للعودة إلى هذه الدراسة فيقول:

«فلما رأيت ذلك وعلمت سببه وتحققت رغبة الطالب لذلك، جمعت ما كنت سوّدته، وزوّدت فيه، وهي تراجم فقط دون الأخبار والوقائع».

وفيما الجبرتي منهمك في هذا العمل الشاق إذ:

«ورد علينا نعي المترجم (المرادي) ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق في زوايا الإهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع».

ويفهم من ذلك أن الجبرتي قد توقف عن متابعة بحثه حين وصله نبأ وفاة الشيخ المرادي، كما أن بحثه التاريخي حتى ذلك الوقت لم يعْدُ مجرد سرد تراجم بعد سنة ١٢٠٦ هـ، وإنما اعتباراً من هذا التاريخ بدأ مجال الكتابة التاريخية يتسع أمامه فشمل التراجم والأخبار.

إذاً انقطع الجبرتي عن كتابة التاريخ بعد سنة ١٢٠٦ هـ، ولم يعد إليها إلاّ مع مجيء الحملة الفرنسية إلى أرض مصر، وفي صورة

جديدة تؤرخ لأحداث مصر في عهد الحملة على هيئة يوميات. وأول كتاب أقدم الجبرتي على تدوينه على هذا النحو مخطوط «مدة الفرنسيس بمصر» الذي يتناول احداث الاحتلال الفرنسي من ١٠ محرم ١٢١٣ هـ/ ٢٥ حزيران ١٧٩٨ م، وينتهي بأحداث نهاية شهر رجب سنة ١٢١٣ هـ/ كانون أول ١٧٩٨ م. ومن الواضح أنه كتب أثناء مجرى الأحداث بمصر. وذلك لاحتوائه على تفاصيل أوفى وأهم مما جاء في «مظهر التقديس» أو عجائب الآثار» عن نفس الفترة وإذا كان مخطوط «مدة الفرنسيس» قد تناول احداث الشهور السبعة الأولى للحملة بشيء من الإسهاب والتفصيل، إلاّ أنه لا يؤرخ لكل فترة الحملة، ولذا جاء كتاب «مظهر التقديس» ليملأ هذا الفراغ.

ومما يدل على أن مخطوط «مدة الفرنسيين» كان أول عمل يقوم الجبرتي بتدوينه أنه ذكر في مقدمة كتابه «مظهر التقديس» ما يلي:

«ولقد كنت سطرت ما حصل من الوقائع، من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر إلى أن دخلها مولانا الوزير (يوسف باشا) في أوراق غير منظومة، وكثيراً ما كان يخطر ببالي وان لم يكن ذلك من شأن أمثالي ان أجمع افتراقها وألبسها بالترصيف اتساقها ليكون ذلك تاريخاً مطلعاً اللبيب على عجائب الأخبار وغرائب الآثار تذكره بعدنا لكل جيل»[1].

---

(١) الجبرتي: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس طبعة لجنة البيان العربي. ت حسن جوهر وعمر الدسوقي القاهرة ١٩٦٩.

وهكذا يمكننا القول بأن الجبرتي قام في خلال تلك المرحلة بعمليتين هامتين هما: ترجمة أعيان القرن الثاني عشر الهجري وكتابة تاريخ في شكل مذكرات يومية لأحداث مصر في فترة الاحتلال الفرنسي[1]. وتبقى بعد ذلك العملية الأخيرة في تاريخ الجبرتي وهي الربط بين العملين، وذلك الربط الذي سوف يتمخض عنه كتابه المعروف «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» بأجزائه الأربعة.

في عام ١٢٢٠ هـ على وجه التحديد، بدأ الجبرتي في جمع المادة التاريخية لكتابه عجائب الآثار، ولا سيما الجزئين الأول والثاني منه، اللذين سيتناولان تاريخ مصر في ظل الحكم العثماني حتى مجيء الفرنسيين. وهو يوضح في مقدمة الكتاب الصعوبات التي واجهته في كتابة تاريخ تلك الفترة لخلوها من المصادر. ويبين بأنه بعد بحث واستقصاء عثر على مصدرين، أحدهما يتكوّن من كراسات كتبها بعض العامة من الأجناد والثاني لمؤلف يدعى أحمد شلبي بن عبد الغني[2] أرّخ لمصر من الفتح العثماني إلى عام ١١٥٠ هـ . وقد نعتها الجبرتي بالركاكة وسوء الترتيب.

ويفهم مما سبق ان الجبرتي اعتمد على أحمد شلبي في الفترة

---

(١) محمد أنيس: الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار - مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٨ الجزء الأول آيار ١٩٥٦.

(٢) له كتاب «أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات» لا يزال مخطوطاً في نسخة وحيدة محفوظة بمكتبه جامعة يل بالولايات المتحدة الأميركية.

السابقة للفتح العثماني حتى سنة ١١٠٠ هـ ثم بعد ذلك اعتمد على روايات المسنين ونقوش المقابر للتحقق من تاريخ وفاة أصحابها، فضلاً عن اتصاله بأقارب الموتى ليطلع على ما قد يكون لديهم من أوراق. وعلى سجلات المحكمة الشرعية حيث اعتمد في ذلك على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب احد عدول هذه المحكمة. أما أحداث الفترة التي تبدأ بعام ١١٧٠ هـ فقد شاهدها الجبرتي ووعاها وأسهم فيها ويبدأ يعتمد بالتالي على ذاكرته في تدوينها ، وإن كان هذا الأمر مستبعداً لأن الجبرتي ولد سنة ١١٦٨ هـ ، حيث بدأ يدوّن ملاحظاته بشكل منتظم في صور مسودات حتى بدأ في عام ١٢٢٠ هـ يعمل على جمعها وكتابتها بشكل تاريخي.

أما الجزء الثالث من عجائب الآثار فكانت نواته ما دوّنه في « مظهر التقديس » بعد أن تناوله بالتعديل ، وبحذف ما كتبه الشيخ العطار من أشعار مع إضافة أحداث السنوات من ١٢١٦ هـ إلى ١٢٢٠ هـ .

أما الباعث النفسي الذي أشار إليه الجبرتي[١] والذي دفعه إلى كتابه « عجائب الآثار » على النحو السابق في عام ١٢٢٠ هـ فقد فسره محمد أنيس[٢] بأنه « رغبة الجبرتي في أن يغيّر موقفه من الأحداث التي مرت بمصر منذ الغزو الفرنسي حتى ١٢٢٠ هـ » مدفوعاً بخيبة الأمل التي أصابته بعد عودة العثمانيين ، وانتشار الفوضى والاضطراب

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/٢٤٩.

(٢) محمد أنيس: مرجع مذكور في الحاشية (١).

مدركاً بأن الحكم الفرنسي لمصر لم يكن شراً كله . وأن كان الحكم العثماني لم يكن خيراً كله، بل ربما كان الحكم الفرنسي يفضله من بعض الوجوه ولذا فقد أراد أن يعيد موقفه من أحداث تلك الفترة بعيداً عن العاطفة ، وبنظرة المؤرخ القائمة على الموضوعية والبعد عن الهوى . ويعبر الجبرتي عن هذا المعنى أصدق تعبير فيما ذكره في مقدمة الكتاب حيث يقول : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه ، دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني »[1] .

وبعد أن فرغ الجبرتي من كتابته الجزء الثالث الخاص بأحداث الحملة الفرنسية أفرد الجزء الرابع لأحداث الفترة الأولى من حكم محمد علي والتي تمتد من سنة ١٢٢١ هـ إلى سنة ١٢٣٦ هـ ، فجاء على عجل . ولم يكن للجبرتي متسع من الوقت لمراجعته أو تنقيحه نظراً للظروف الصعبة التي أحاطت به في أخريات أيامه لاعتزاله الحياة العامة ومرضه ، والتي عبّر عنها في أحداث سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م إذ يقول : « وانقضت السنة بحوادثها التي قصصنا بعضها ، إذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور ، وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة ، وزيادتهم ونقصهم في الرواية ، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف ، وربما أخرّت قيد حادثة حتى

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١٢/١ .

أثبتها ، ويحدث غيرها وأنساها، فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها إن شاء الله عند تهذيب هذه الكتابة . وكل هذا من تشويش البال ، وتكدر الحال ، وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن وضيق العطن. . . »[1] . ويدل ذلك على أن الجبرتي كان لديه متسع من الوقت لمراجعة وتنظيم وتنسيق الأجزاء الثلاثة الأولى من عجائب الآثار ، ولكنه مرض ثم مات إبان كتابته للجزء الرابع . ولعل هذا ما يفسر الاضطراب وعدم التناسق الذي يتسم به الجزء الأخير من عجائب الآثار ، وإن كان بعض المؤرخين أخذ من ذلك الاضطراب دليلاً على أن بعض أجزاء الكتاب قد حذفت عند الطبع أو أن هذا الحذف يرجع إلى ما كتبه الجبرتي عن محمد علي . والحقيقة أن الجزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار يشمل كل ما كان الجبرتي يود أن يقوله في محمد علي بدليل أن المقارنة بين النسخ المخطوطة للجبرتي قديمها وحديثها والنسخ المطبوعة تؤكد أن الجزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار لم يحذف منه شيء بالمرة . وعلى هذا يمكن اعتبار عجائب الآثار في التراجم والأخبار » عملاً تركيبياً يشمل تراجم متناثرة لأعيان القرن الثاني عشر الهجري ومذكرات الجبرتي اليومية لأحداث مصر في ظل الاحتلال الفرنسي وما دونه من مذكرات عن السنوات الأولى لحكم محمد علي .

ثالثاً : مفهوم الجبرتي للتاريخ

تكشف المقدمة النظرية المحدودة التي كتبها الجبرتي لعجائب

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار حوادث ١٢٢٥ هـ .

الآثار عن مفهومه للتاريخ ، وهو ينطلق فيها من اليقين بأن الانسان حيوان اجتماعي إذ :

« خلق الله الإنسان ضعيفاً لا يستقل وحده بأمر معاشه لاحتياجه إلى غذاء ، ومسكن ولباس وسلاح ، فجعلهم الله يتعاونون في تحصيلها وترتيبها بأن يزرع هذا لذلك ، ويخبز ذاك لهذا ، وعلى هذا القياس تتم سائر أمورهم ومصالحهم »[١] .

وعنده أن موضوع التاريخ هو أحوال هذا المجتمع فهو :

« علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف ، وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وأنسابهم ووفياتهم » .

ولكنه يحفظ للشخصيات البارزة مكانها في هذا الموضوع مثل :

« الأنبياء والأولياء والعلماء والشعراء والسلاطين وغيرهم[٢] .

وهدف قراءة التاريخ هو العظة والاعتبار أو قياس الحاضر على الماضي . فهو علم نفعي له قيمة في حياة الإنسان الراهنة ، فقارئه « يستفيد ما يرومه من المنفعة ، ويعتبر المطّلع على الخطوب الماضية فيتأسى إذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر »[٣] وهو ما يمكن

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١/١٣.
(٢) عجائب الآثار ١/٦.
(٣) عجائب الآثار ١/٦.

العاقل من أن « يقيس على من مضى من أمثاله في هذه الدار الدنيا »[1] ، وجوهر نفعية التاريخ يتمثل في :
« حصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم السالفين ويستجلب خيار أفعالهم ويجتنب سوء أقوالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي »[2] .

وإذاً فعلم التاريخ عند الجبرتي فيه عبر ، وله مسار من عرفه أمِن شر الوقوع في أسر الفناء ، وهذا المسار ليس عشوائياً ، وليس مجرد عبرة ترتبط بكل حادث على حدة ، كما قد يبدو للنظرة المتعجلة في نصوص الجبرتي ، ولكنه مسار يخضع لقوانين كلية ولحتمية مسبقة ترتبط فيها الأسباب بالنتائج ، والعلة بالمعلول ، لكن هذه الأسباب ليست دنيوية إلاّ بمقدار خضوعها للناموس الإلهي الذي حدد كل شيء سلفاً . وحركة التاريخ لدى الجبرتي تتجه إلى تحقيق العدل ، والله « هو العادل الحقيقي الذي جعل لكل شيء قدراً » . والإنسان لذلك لا يستطيع أن يعدل إذا تجاوز أوامره ونواهيه ، بل أن نظام حياته الاجتماعية يختل ، إذ « لو فرض فارض زائداً عليه أو ناقصاً عنه لم ينتظم الوجود على النظام بهذا التمام والكمال »[3] .

وصحيح أن « الظلم والعدل » خاصتان وضعهما الله في الإنسان أو

---

(١) عجائب ١/ ٩ .
(٢) عجائب ١/ ٦ .
(٣) عجائب ١/ ١٤ .

« ركّزهما في نفسه » ، إلا أن الله قد وضع أيضاً « ميزاناً للعدالة وقانوناً للسياسة توزن به حركاتهم وسكناتهم . وترجع إليه طاعتهم ومعاملاتهم » . والقانون السياسي هو كتاب الله ، والميزان الذي يحكم به على الناس هو « العدل » ولأن مباشرة هذا الأمر بواسطة الله « هو على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة » ، فإنه قد « استخلف فيهم خلائف وضع في قلوبهم العلم والعدل ليحكموا بها بين الناس » . والنظام الاجتماعي كله يفسد في رأي الجبرتي إذا تنازع هؤلاء الخلفاء « في وضع الشريعة »[1] .

ويخضع العالم التاريخي في منظور الجبرتي لجبرية مسيطرة ، والخلافة خاضعة لها ، ومعناها عنده « أن ينوب أحد مناب آخر في التصرف واقفاً على حدود أوامره ونواهيه »[2] .

فالخلافة ليست اجتهاداً ولكنها قيام بالواجب المحدد . وحتى العدل ليس إرادة إنسانية فالإنسان يسمى عادلاً « لما وهبه الله قسطاً من عدله وجعله سبباً وواسطة لإيصال فيض فضله واستخلفه في أرضه بهذه الصفة حتى يحكم بين الناس »[3] .

وخلائف الله في أرضه الذين يقومون بتطبيق العدل هم خمس فئات تتوزع في نظام طبقي هرمي ، تبعاً للرقعة التي يمارسون عليها خلافتهم هل هي ضيقة أم متسعة ، وهل هم مسؤولون عن

---

(١) عجائب ١/ ١٣ ـ ١٤.
(٢) عجائب نفسه.
(٣) عجائب نفسه.

غيرهم أم عن أنفسهم فقط ، وهذه الفئات الخمس هي : « الأنبياء والعلماء وولاة الأمــور وأوساط الناس وأخيراً القائمون بسياسة نفوسهم »[1] . . . وفي هذا النظام فإن الأنبياء هم « أدلاء الأمة وعمد الدين ومعادن حكم الكتاب وأمناء الله في خلقه »[2] .

وبما أن النبوات قد ختمت برسالة محمد ﷺ فإن العلماء وهم الطبقة الثانية يقومون بدور هؤلاء الأنبياء فهم « ورثة الأنبياء » وهم « أحباب الله وصفوته من خلقه ومشرق نور حكمته » و« أمناء الله في العالم وخلاصة بني آدم » بل وخلاصة خاصة الله من خلقه »[3] .

والملوك والأمراء هم خلائف للعلماء ، أي أن درجتهم في الخلافة درجة أقل من درجة العلماء . إذ الواجب على الملك أن لا يقطع في باب العدل ، إلاّ بالكتاب والسنّة ، لأنه يتصرف في ملك الله وعباد الله بشريعة نبيّه ورسوله »[4] . وهو يعطي هؤلاء الملوك حق تطبيق الناموس « إذ لولا قهرهم وسلطتهم لتسلط القوي على الضعيف والدنيء على الشريف » ولولاه أيضاً « لم يقدر مُصلّ على صلاته ، ولا عالم على نشر علمه ، ولا تاجر على سفره »[5] .على أن العدل والانصاف عنده يتسع ليكون أساساً لكل مملكة سواء كانت إسلامية أم

---

(١) عجائب ١/ ١٤ .

(٢) عجائب نفسه.

(٣) عجائب ١/ ١٥ .

(٤) عجائب ١/ ١٧ .

(٥) عجائب ١/ ١٦ .

غير إسلامية . لكن المفهوم أن الدولة الإسلامية لا تكون عادلة إلاّ إذا طبّقت الإسلام . وهو يرى العدل أساس استقرار الممالك وأن فيه مصلحة للحاكم نفسه ، فهو إذا عَدَلَ « نصره الحق وصفت له النعمة وأقبلت عليه الدنيا فتهنأ بالعيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وأمِن الحروب وصارت طاعته فرضاً وظلت رعيته جنداً »[١] .

ويلي الملوك في الخلافة أوساط الناس ، الذين يتحكمون فيمن هم أدنى منهم ، وهؤلاء مسؤولون على أن « يراعوا العدل في معاملتهم ، وأروش جنايتهم بالانصاف فهم يكافئون الحسنة بالحسنة والسيئة بمثلها »[٢] .

وفي الطبقة الأخيرة يقبع « القائمون بسياسة نفوسهم » هؤلاء الذين لا يترأسون على أحد ، ولا يتحكمون في اتباع . وهم مطالبون بالعدل مع أنفسهم ، برعاية جوارحهم وضبط غرائزهم ، لأن كل فرد من أفراد الإنسان مسؤول عن رعاية رعيته التي هي جوارحه وقواه[٣] .

ولا نستطيع القول أن الجبرتي قد نظر إلى التاريخ من خلال الإطارات الضيقة والمحدودة لهذه الرؤية ، وهي خليط من الأفكار السنية التي تعلي شأن النص وتتعصب له ، ومن التصوف المعتدل المقبول لدى أهل السنة ، بيد أن الإطار الواسع لهذا هو الذي يفسر كل الظواهر التاريخية عنده . ولا جدال في أن الجبرتي عندما أعاد

---

(١) عجائب ١/١٧ .

(٢) عجائب ١/١٨ والارش هي دية الجنايات .

(٣) عجائب ١/١٨ ـ ١٩ .

النظر فيما عاصره من مراحل وصاغ تاريخه ، ما لبث أن ظن أنه يعيش مرحلة تدهور ، ولعله قد فزع من الانقلاب الحاد الذي نتج من تعدد الثورات على عهد الحملة الفرنسية وما تلاها ، وما أحدثه محمد علي من تغيير حاد في نمط الحياة المصرية ، وفي نظام المجتمع المصري الاقتصادي والاجتماعي ، واختفاء جماعات سياسية قديمة وظهور غيرها . ولأن الجبرتي محافظ، لم يستطع أن يرتفع عن مستوى عصره ولم يدرك أنه أمام انبعاثة قومية جديدة في كل شيء ، ومن هنا فسر هذا التدهور والانحلال طبقاً لنظريته تلك بتدهور العدل وبالعدول عن سنن الله ، وهو ما تمثل برأيه في انهيار أهم الخلفاء عند الله بعد انتهاء النبوات ، وهم العلماء .

وربما لهذا شغف الجبرتي شغفاً شديداً بإبراز انحراف العلماء عن الناموس ، ويصرف النظر عمّا إذا كان متأثراً في ذلك بمنافسات وأحقاد شخصية ، فإن حرصه هذا هو جزء من تفسيره للظاهرة المرتبطة باختلال النظام في عصره ، كتعبير عن اختلال العدل لعدم قيام خلائف الله بدورهم . وهو يرصد حتى في قمة حديثه عن العلماء كخلفاء أنه « ظهر في هذا الزمان اختلال في حال البعض من العلماء من حب الجاه والمال والرياسة والمنصب والحسد والحقد »[1] .

ومظاهر هذا الشغف متعددة ، فإلى اهتمامه بذكر تحول العلماء إلى مستثمرين وماليين وتجار ، فقد اهتم أيضاً بذكر مثالبهم الخلقية في ضوء المقاييس الأخلاقية لعصره . فالشيخ السادات قد « افنى غالب

---

(١) عجائب ١/ ١٥.

عمره في تحصيل الدنيا وتنظيم المعاش والرفاهية واقتناء كل مرغوب للنفس وشراء الجواري والعبيد والحبوش والخصيان ، والتأنق في المآكل والمشارب والملابس واستخراج الأدهان والعطريات المفرحة والمنعشة للقوة وتعاظم في نفسه وتعالى على أبناء جنسه »[1] . والشيخ الشرقاوي استولى على تركات الهاربين الذين ماتوا في المنفى أثناء الحملة الفرنسية « واتّسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها »[2] ، والشيخ السنديوني كان يرتكب أموراً « يستحي من ذكرها في حق مثلها »[3] . أما الشيخ الجوسقي فكان ذا صرامة وجبروت[4] ، أما الشيخ حسين بن سالم الهواري ، شيخ رواق الصعايدة ، فقد كان فيه « صلابة زائدة وقوة وجنان وشره تجاري. . لدرجة أنه تعدى على مكتب لتحفيظ القرآن فهدمه وأدخل أرضه في داره من غير تحاشي أو خشيه لوم مخلوق أو خوف خالق » وكان يسخر المارة في بناء هذه الدار ويأخذ من مياسير الناس والسوقة دراهم على سبيل القرض الذي لا يرد »[5] . ومن الواضح أن السلوك الاجتماعي للعلماء كان في رأي الجبرتي مرفوضاً بشدة لأنهم كانوا يرتكبون « الأمور المخلة بالمروءة والمسقطة للعدالة » ، ويضرب مثلاً لذلك اجتماع العلماء « في سماع الملاهي والأغاني

---

(١) عجائب ٣/ ٤٢٨.

(٢) عجائب ٣/ ٣٧٨.

(٣) عجائب ٢/ ٣٦.

(٤) عجائب ٢/ ٢٧٩.

(٥) عجائب ٣/ ٢١٩.

والقيان والآلات المطربة واعطاء الجوائز والنقود بمناداة الخلبوص وقوله واغلاماه في السامر . وهو يقول في سامر الجمع بمسمع من النساء والرجال من عوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذي يسمعه القاضي والداني وهو يخاطب رئيسة المغاني : يا ستي ، حضرة شيخ الإسلام والمسلمين مفيد الطالبين الشيخ العلاّمة فلان منه كذا وكذا من النصفيات الذهب ، قدر مسماه كثير وجرمه قليل ، نتيجته التفاخر الكاذب والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم في فعل المحرمات الواجب عليهم النهي عنها ، كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعض في كل مجمع ، ومواظبتهم على الهزليات والمضحكات وألفاظ الكناية معبر عنها عند أولاد البلد بالأنقاط ، والتنافس في الأحداث إلى غير ذلك ،[1] وهذا السلوك الاجتماعي الرديء لم يقابله صفات نفسية متدينة لدى العلماء الذين « انقلب الوضع فيهم لضده » وسيطرت عليهم صفات « التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة ، فضلاً عن « التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية »[2] .

والجبرتي هنا لا يصدر في أحكامه على حفنة من الأشخاص بدوافع اخلاقية فحسب ، وإنما يحكم بهذه الدوافع على المسار

---

(١) عجائب نفسه.

(٢) عجائب نفسه.

التاريخي ، فالتاريخ عنده تحقيق لحتمية فرضتها الإرادة العليا بالكتاب والميزان (العدل) وأنابت عنها خلائف ليطبقوا الكتاب ويعملوا بالميزان ، وأهم هؤلاء الخلائف ، أو طبقتهم العليا ، هم العلماء ، ولهذا انهار التاريخ بانهيارهم وذهبت مصر عندما ضاعوا ، فمن المعتمد لديه « أن صلاح الأمة بالعلماء والملوك ، وصلاح الملوك تابع لصلاح العلماء ، وفساد اللازم بفساد الملزوم فما بالك بفقده » . أن في فساد العلماء اختلال لنظام العالم ، إذ معنى هذا أن الخلفاء لم يصبحوا أمناء على الرسالة ، وإذا لم يكن في الناس من يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويقيم الهدى فسد نظام العالم وتنافرت القلوب »[١] وتطبيقاً لهذه الرؤية فإن الجبرتي اعتبر أن وفاة القطب الصوفي الإمام محمد بن سالم الحفاوي الشافعي الخلوتي الذي توفي عام ١١٨١ هـ هو بداية « نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية ، وظهر مصداق قول الراغب أن وجوده أمان على أهل مصر من نزول البلاء ، وهذا من المشاهد والمحسوس » ، ولما كانت الرحى لا تدور بغير قطبها ، وقد كان هذا القطب ، قطب رحى الديار المصرية ، ولا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه وبإذنه ، فإن رفض امراء المماليك تنفيذ أوامره قد أدى إلى أن « نزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية ولم يزل يتضاعف حتى عمّ الدنيا وأقطار الأرض »[٢] .

---

(١) عجائب ١/ ٣٥٤.

(٢) عجائب ١/ ٣٥٤.

ويرصد الجبرتي ويسجل مظاهر البلاء بعد تلك الخسارة بوفاة القطب الصوفي واختلال الطبقة الممتازة من الخلائف، فهو يعتبر حركة علي بك الكبير جزءاً من البلاء الذي حلّ بمصر[1]، وكذلك يعتبر انحراف المماليك عن العدل، أي عن تطبيق الشريعة، الأمر الذي حدث بعد وفاة محمد أبي الذهب الذي أكثر من المماليك «وعظم أمرهم بعده وانحرفت طباعهم عن قبول العدالة، ومالوا إلى طريق الجهالة واشتروا المماليك فمشوا على طرائقهم وزادوا عن سوابقهم وألفوا المظالم وظنوها مغانم وتمادوا على الجور وتلاحقوا في البغي على الفور إلى أن حصل ما حصل ونزل بهم من الناس وما نزل»[2].

وتتسع الجبرية عنده لتسع الخراب وتجعله بلاء مقدراً سلفاً على الذين خرقوا الناموس، وهو يبدأ الجزء الثالث من عجائب الآثار الذي يروي تاريخ الجملة الفرنسية وما تلاها. فيتحدث عن سنة ١٢١٢ هـ، عام الحملة ويراه «أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال، وفساد التدابير وحصول التدمير، وعموم الخراب،

---

(١) عجائب ٢/ ٣٥٤.

(٢) عجائب ١/ ٤٨٥.

وتواتر الأسباب ، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[1] . فما حدث هو عقاب من الله ، ولا يبدو الجبرتي هنا متنبهاً ، لأن العقاب شمل الظالمين والمظلومين ، ولعله يعتبر الكل ظالمين .

وتتوشح الجبرية عند الجبرتي بنظرة أخلاقية واضحة ، فانحراف الناس عن العدل وعدم ضبطهم لجوارحهم وانغماسهم في الإثم الأخلاقي ، بالمفهوم الديني ، وهدمهم للتقاليد الثابتة هو سبب من أسباب انهيار الدولة ، ثم أنهم يجازون على ذلك بتسليط آخرين يمارسون الشر ضدهم . وهذا وذاك إرادة الله . فعندما استذل أهل الذمة المسلمين في عهد الحملة الفرنسية كان ذلك «بما كسبت أيديهم وما ربك بظلّام للعبيد ، والحال الحال والمركوز في الطبع ما زال »[2] وتنسحب هذا العقاب على السيد عمر مكرم الذي يرى الجبرتي أن نفي محمد علي له كان «بعض ما يستحقه ومن أعان ظالماً سُلط عليه ولا يظلم ربك أحداً »[3] . وتدور الدائرة على الشيخ الدواخلي فينفيه محمد علي إلى دسوق ، ويطبق الجبرتي نفس القاعدة عليه ، فيرى أن ما حدث له «إنما هو قصاص وجزاء فعله في السيد عمر مكرم فأنه كان من أكبر الساعين عليه إلى أن عزلوه وأخرجوه من

---

(١) عجائب ٢/ ١٧٩ .

(٢) عجائب ٢/ ٢٥٠.

(٣) عجائب ٣/ ٢٧٥.

مصر والجزاء من جنس العمل»[1] ، وعلى نفس القاعدة يفسر ما جرى للشريف غالب الذي كان سيف نقمة على الوهابيين في الحجاز ، ثم أوقع به محمد علي «فليعتبر من يعتبر وكل الذي وقع له وما سيقع له بعد من التعذيب وغيره فما جناه من الظلم ومخالفة الشريعة والطمع في الدنيا وتحصيلها بأي طريق»[2] .
بل أن الجبرتي يرى في كل ظاهرة من ظواهر الظلم نفس الرؤية ، حتى الجرائم البشعة التي ارتكبها الجنود في حق الشعب كلها «تقادير إلهية وقضايا سماوية ونقمة حلت بالأقليم وأهله من كل ناحية»[3] .

ولأن التاريخ عند الجبرتي هو تحقيق لإرادة عليا لا يملك الإنسان الفكاك منها ، وكل ما حدث من مظالم هو انتقام سماوي لخروجه على الناموس ، فقد كان طبيعياً أن ينظر إلى التكوين الاجتماعي باعتباره خاضعاً لتركيب طبقي ، يخضع فيه الصغير للكبير ، والدنيء للشريف والأدنى للأعلى ، وهنا يبدو الجبرتي أكثر تزمتاً من أي شيء آخر ، فكل شيء عنده لا يداني الإخلال بالتصميم الاجتماعي المستقر، فعلى المماليك أن يتبعوا تقاليدهم تجاه أمرائهم ، فإذا ما خرجوا عنها أثاروا

---

(١) عجائب ٣/٥٠٦ .
(٢) عجائب ٣/٤٤٨ .
(٣) عجائب ٣/٤٩١ .

غضبه . وهو يرى أن من الأحداث التي تستحق الرواية أن المماليك قد تزوجوا «وصار لهم بيوت وخدم ويركبون ويغدون ويروحون ويشربون الدخان وهم راكبون في الشارع الأعظم في أيديهم شبكات الدخان من غير إنكار ، وهم في الرق ولا يخطر ببالهم خروجهم عن الأدب لعدم إنكار أسيادهم وترخيصهم لهم في الأمور»[1] .

ويعتبر الجبرتي أن إنطلاق الإنسان من أصل متدن إلى طبقة أعلى مما يستحق التسجيل والتعليق والهجوم أحياناً ، فهو يتحدث عن عبد العال الذي عين «أغات مستحفظان ومحتسباً وكان ذلك من جملة النوادر والعبر ، فأن عبد العال هذا كان من أسافل العامة»[2] . وهو يذكر تهديده لبعض الوجاقلية فيقول: «فسبحان الفعّال لما يريد فأن عبد العال هذا الذي يتهددهم ربما كان لا يقدر على الوصول إلى الوقوف بين يدي بعض أتباعهم فضلاً عنهم»[3] . وهو أحياناً يسجل الأصل الوضيع دون أن يعلق عليه ، ولكنه يلفت نظره ، وذاك ما فعله عندما أرّخ للشيخين عبد الله الشرقاوي وسليمان الفيومي .

وإنطلاقاً من هذا المفهوم فإننا نلمح في تأريخ الجبرتي

---

(١) عجائب ٢/ ٢٩ .
(٢) عجائب ٢/ ٤١٨ .
(٣) عجائب ٢/ ٤٣٠ .

للثورات الشعبية رفضاً لها قد يفسر لدى البعض بأنه كان ضد العنف ، ولكن العصر كان دموياً قاسي القلب ، وما كان يرتكبه الأمراء من مظالم وجرائم كان يبرر بلا شك أي عنف مضاد قد تمارسه الجماهير ، ولكن المسألة فيما نظر إليها الجبرتي كانت مسألة انقلاب الوضع الطبقي الحديدي ، خاصة أن أول ثورة شعبية عنيفة شاهدها الجبرتي وهي ثورة القاهرة الأولى قد تضمنت نهباً ، عرّض ممتلكات الأثرياء للخطر ، وكان حسّ الملكية لديه شديد اليقظة .

والثورة عند الجبرتي هي «مغالبة للجهلاء على العقلاء وتطاول للسفهاء على الرؤساء وتهور العامة ولفظ الحرافيش وغير ذلك»[١] ، وهي ككل الحوادث الجسيمة في تاريخه ، تعبير عن غضب الإرادة العليا على الذين خرجوا عن الناموس ، ولذلك اعتبر تخريب مساكن المماليك في ثورة القاهرة الثانية قدراً وانتقاماً إلهياً مما ارتكبوه فصارت مساكنهم وكلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات ويتذكر بها ما يتلى في حق الظالمين من الآيات ، ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون . وما كنا مهلكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون﴾[٢]. لكنه لا يعتبر مع ذلك أن العامة من الثائرين المخربين ، أداة انتقام إلهية ، أو عدل بالعنف ، بل ينظر إليهم

---

(١) عجائب الآثار ٢/ ٣٣٤.

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٣٤٣.

كمرتكبين لإثم جديد «إن الله سلط ظالماً على ظالم» . والأساس عنده هو أن خللاً قد حدث وأوجب هذا كله .

وكانت نظرة الجبرتي للفلاحين في عصره أشبه بنظرة الأمير المملوكي أو الملتزم ، ولذلك تأسى ، لأنهم رفضوا في عهد محمد علي العمل لحساب الملتزمين السابقين ، عندما سمح لهؤلاء الملتزمين في عام ١٢٢٩ هـ بحصاد زراعاتهم ، وقال أن كل ملتزم كان «لا يجد من يطيعه منهم ، وتطاولوا عليهم بالألسنة فيقول الحرفوش منهم إذا دعي للشغل روح انظر غيري أنا مشغول في شغلي . . . أنتم إيش بقي لكم في البلاد فقد انقضت أيامكم . . إحنا صرنا فلاحين الباشا» . ويعلق على ذلك بأنهم «قد كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد المشتري» ، وهذا التوصيف لم يكن من دواعي سروره لأن الفلاحين تحرروا من رق الالتزام ، ولكن مدخلاً للسخرية من الفلاحين وتصويرهم في صورة العناصر ذات النفسية المستذلة التي لا تحب إلاّ من يضطهدها ثم يقول «وقد سلّط الله على هؤلاء الفلاحين لسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وخيانتهم وأضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا يعفو عنهم ، كما قال فيهم البدر الحجازي :

وسبعة بالفلح قد أنزلت لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم ، أستاذهم ، والمشد والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى كاشف الناحية وزد عليها كدهم في اشتغال

وفقـرهم مـا بـين أعينـهم   مع اسوداد الوجه هذا النكال[١]

وهذه الرؤية تنسجم مع الموقف العام للجبرتي الذي يرى القهر الطبقي عقاباً إلهياً أنزله الله بالفلاحين وغيرهم عقاباً لهم ، وهو ما لم يمنعه من النظر إلى فعلهم كعقوبة من الله أيضاً للملتزمين .

ولا يختلف الأمر بالنسبة لعامة المدن الذين لا يصفهم الجبرتي إلاّ بأنهم «جعيدية ، وأوباش» و «زعر» و «حرافيش» ، وبالتالي فأن ثوراتهم لم تكن تروقه ، وقد حكم على ثورة القاهرة الثانية أيام الفرنسيين قياساً على نتائجها من حيث وفرة الضحايا ، « ما استفاد الناس من هذه العمارة وما جرى من الغارة إلاّ الخراب والسخام والهباب ، فكانت مدة الحرب والحصر بما فيها من الثلاث أيام الهدنة سبعة وثلاثين يوماً وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج والشتات والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور وقتل الرجال ونهب الأموال وتسلط الأشرار وهتك الأحرار»[٢] . وقد أثاره بشدة الاعتداء على المشايخ خلال هذه الثورة عندما حاولوا إيقاف القتال والتهادن مع الفرنسيين فهاجمهم العامة ورفضوا الصلح ، وهو ما اعتبره

---

(١) عجائب ٣/ ٤٥٥ ـ ٤٥٧ .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٣٤٢.

فضولاً» أو تزايداً من السفلة والغوغاء[1] . وناقش مسعى المشايخ لوقف القتال فقال أنهم لم يأمروا بذلك «ولم يذكروا صلحاً ولا غيره ، إنما بلغوا صورة المجلس الذي طلبوا لأجله لحضرة الكتخدا ، فمجرد ذلك قامت عليهم العامة هذا المقام وسبوهم وشتموهم»[2] ، وأشار إلى الدور الذي لعبه مولاي محمد وهو رجل مغربي كان يزعم المهدوية ، ولعب دوراً هاماً في مقاومة الفرنسيين في البحيرة ، ثم ظهر مرة أخرى في ثورة القاهرة الثانية ، وكان من أعلى الأصوات الرافضة لتهاون المشايخ ، وقد علق الجبرتي على رفضه للصلح فقال أن هذا «منه أفتيات وفضول ودخول فيما لا يعني حيث كان في البلد مثل الباشا والكتخدا والأمراء المصرية ، فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحاً أو يبرمه ، لكنها الفتن يستنسر فيها البغاث سيما عند هيجان العامة وثورات الرعاع والغوغاء ، إذا كان ذلك مما يوافق أغراضهم»[3] .

فالثورة عند الجبرتي «فتنة» تطلق عنان هذه العناصر من الرعاع فيصبحون خطراً على من يملكون ، فالواحد منهم «ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير

---

(١) عجائب الآثار ٢/ ٣٣٥.

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٣٣٧.

(٣) عجائب الآثار ٢/ ٣٣٦.

ذلك»[١] ، لذلك روى الجبرتي أخبار ثورة القاهرة الأولى بشكل يوحي برفضه لها ، وهو يرى أن شرارتها نجمت من الرعاع ، أذ «انتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور ، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور»[٢] . وقد أزعجه بشدة ما ارتكبه العامة من عدوان على الممتلكات ، فقد خرجوا «عن الحد وبالغوا في القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والأمانات ، وسبوا النساء والبنات ، وكذلك نهبوا خان الملايات والموجودات وأكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب[٣] . وهو ينظر إلى اقتحام الفرنسيين للأزهر وانتهاكهم لحرمته فيعتبره نتيجة للثورة ، وليس خطأ فاحشاً من المستعمرين ، إذ قال «وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ويرغب الناس في سكناها ويودعون عند أهلها في الباطن والظاهر ، فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع وانخفض على القياس المرفوع»[٤] . لذا لم يكن غريباً أن يكون

---

(١) عجائب الآثار ٢/٣٣٦.
(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/٢١٨.
(٣) الجبرتي ٢/٢١٩.
(٤) عجائب الآثار ٢/٢٢١.

من أعمال الديوان الذي كان الجبرتي من أعضائه ، على عهد قيادة الجنرال مينو للحملة الفرنسية ، أن يحذر بشدة من الثورة ، وأن يصوغ تحذيره في أن الثورة يقوم بها الدهماء فلا يخسرون شيئاً ، وإنما يخسر الذين يملكون المال أو النفوذ ، فقد ذكر أن أعضاء الديوان المذكور دعوا مشايخ الحارات والأخطاط وحذّروهم مما يترتب على «قيام المفسدين الجاهلين ، وأنهم هم المأخوذون بذلك ، كما أن من فوقهم مأخوذ عنهم ، فالعاقل يشتغل بما يعنيه»[1] .

والعزوف عن الثورة ، أو الدعوة إليها ، يلازم الجبرتي حتى بعد ذلك التاريخ بسنوات فعندما عفا محمد علي عن السيد عمر مكرم وعاد من منفاه ، امتلأت داره بالناس الذين جاءوا يهنئونه ، واستشعر الرجل الحرج ، ولعله خاف من مغبّة النفي مرة أخرى ، فاعتكف بحجرته الخاصة فلا يجتمع به إلاّ بعض من يريد من الأفراد ، فاعتبر الجبرتي هذا العكوف «من حسن الرأي»[2] ، لكن الشيخ سليمان الجوسقي ، شيخ العميان ، الذي قاد ثورة القاهرة الأولى وأُعدم بعد فشلها لم يكن حسن الرأي ، لذلك فالجبرتي يرى أن ما حمله على الدعوة للثورة هو «التفاخر» فتولى «كبر إثارة الفتنة التي أصابته وغيره»[3] .

---

(١) الجبرتي عجائب الآثار٢/ ٤١٥ .

(٢) الجبرتي عجائب الآثار ٣/ ٥٩٩ .

(٣) الجبرتي عجائب ٢/ ٢٧٩ .

ولا يبدو الجبرتي في تأريخه لثورة ١٨٠٥/١٢٢٠ م معارضاً لها كما كان معارضاً لغيرها ، بل إننا نستشعر روحاً من التعاطف في روايته لأحداثها ، فقد خلت عباراته من أوصاف «الجعيدية» و «الأشرار» و «أوباش الناس» في وصف الجماهير ، وفي كل المناقشات التي دارت بين قادة الثورة والوالي العثماني ، والتي كان الثوار فيها يستندون إلى أن من حقهم بمقتضى الشريعة أن يعزلوا ولي الأمر إذا سار فيهم بالظلم ، بدا الجبرتي موافقاً على هذا الرأي ووصف رفض الوالي له بأنه «خلاف وعناد» ، لكنه يبدو في أحيان أخرى رافضاً للكل ، فهي «قضية مشكلة بين أوباش مختلفة وطبائع معدومة منحرفة»[١] . ولا يستبعد بعض المؤرخين أن يكون الجبرتي واحداً من المشايخ الذين وقعوا العرائض التي كتبها العلماء إلى السلطان يطالبون فيها بتثبيت ولاية محمد علي على مصر بعد هذه الثورة[٢] . على أنه من المؤكد أن الجبرتي قد غيّر هذا الرأي فيما بعد ، بمعارضته الصريحة لحكم محمد علي وتقويمه لموقف عمر مكرم بأنه أعان ظالماً فسلطه الله عليه . وإذا كان من الصعب التثبت من موقف الجبرتي السياسي من هذه الثورة في أثنائها ، فأن تفسير عدم هجومه الحاد عليها ، كشأنه مع غيرها من انتفاضات العوام ،

---

(١) عجائب الآثار ٦٦/٣ .

(٢) شيبوب: الجبرتي ص٩٤ .

يكمن في طبيعتها ، إذ كانت ثورة منضبطة تحكم المشايخ في مسارها وكبحوا جماح التطرف فيها ، وبهذا لم تنطلق غرائز الجماهير المشوقة إلى العدل الاجتماعي لتحققه بالنهب والسلب ممّن يملكون ، وهو نوع من العدل كان الجبرتي يخشاه ويرفضه . ذلك أن مفهوم العدل عنده كان يتضمن أن يلتزم كل إنسان وضعه الاجتماعي فلا يصعد إلى سواه ، ولا يهبط إلى ما هو أدنى منه .

ولأن التركيب الطبقي ينبغي أن يحترم ، فأن الجبرتي لم يغفر أبداً لأهل الذمة ، محاولتهم الخروج على هذه القاعدة ، وخرقهم للناموس ، وتطاولهم على المسلمين وخرقهم للقيود الدنيوية والدينية مما يدفعنا إلى الاستنتاج بأن الأمر قد استقر في وجدان الجبرتي على أساس وضع أقل يشغله أهل الذمة ، وهو ما كان يستثيره ويدفعه لرصد كل تجاوزاتهم بغيظ شديد .

وقد ذكر من بين مصائب العام الأول للحملة الفرنسية «ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين»[١] . وفي عهد محمد علي أشار إلى الأقباط فقال بلهجة عدم الرضا أن «الباشا كان يراعي جانبهم لأنهم أصبحوا أخصاء الدولة

---

(١) عجائب ٢/ ٢٥٠.

وجلساء الحضرة وندماء الصحبة»[١] . ولعلها واحدة من المرات القليلة التي أبدى فيها الجبرتي ارتياحه لشيء من تصرفات محمد علي ، عندما أعلن منع الأقباط من الخروج عن الحد في كل شيء . فقد علق الجبرتي على هذا الإعلان بقوله «فما أحسن هذا النهي لو دام»[٢] .

إن الحدود بين الطبقات والفئات هي جزء من بنيان العالم عند الجبرتي يختل باختلالها ، ومن هذه الحدود أن تظل المرأة في مكانة أقل من الرجل لا ينبغي لها أن تتجاوزها وإلا اختل ميزان العدل ، فهو عندما ترجم للحاج أحمد بن محمد الشرايبي المتوفي في عام ١٧٢٧ م وهو من «أعيان التجار المشتهرين كأسلافه» أبدى تقديره لتقاليد الأسرة ، ومن بينها أنه«لا تخرج من بيتهم امرأة إلّا للمقبرة» . ونحن نلاحظ أن الجبرتي قد اشمئز بشدة من مظاهر تحرر المرأة التي جاءت بها الحملة الفرنسية ، فقد استفزه خروج النساء الفرنسيات في الشوارع ، «وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملوّنة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري» ، وقد غضب على النوادي التي أنشأوها وسماها دور الخلاعة ، وذكر «أنهم أحدثوا بغيط النوبي المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة

---

(١) عجائب ٣/ ٥٦٦.

(٢) عجائب ٣/ ٣٧٨.

منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً»[1] . وتحدث عن احتفالهم برأس السنة فقال «وتجمعوا بدار الخلاعة نساءً ورجالاً وترافصوا وتسابقوا وأوقدوا سروجاً وشموعاً وغير ذلك»[2] .

ولا شك أن الفرنسيين قد بالغوا فيما يتعلق باستفزاز المفاهيم الخلقية الثابتة للمصريين ، لكن درجة الاستفزاز كما يعكسها الجبرتي تبدو أشد مما حدث في الواقع ، وذلك على ضوء الحقائق التي يقدمها لنا الجبرتي نفسه في تاريخه ، إذ لم يكن المجتمع المصري متزمتاً أخلاقياً إلاّ في الظاهر ، فقد كانت نساء الطبقات اللاتي تخرجن للأسواق ، والجنود في كل وقت «يلاقشون النساء في مجامع الأسواق من غير احتشام ولا حياء» ، وكان البغاء معروفاً ، وكان نفيسة المرادية زوجة الأمير المملوكي مراد بك تقابل مشايخ الديوان لكي يتوسطوا بينها وبين الفرنسيين في بعض الأمور الخاصة بها ، كذلك فأن القاهرة لم تكن خالية قبل الفرنسيين من الأماكن الترفيهية التي تضم الرجال والنساء .

ولعل ما استفز الجبرتي بشدة كان خروج نساء الطبقات الوسطى عن التقاليد ، وتزوجهن ببعض الفرنسيين الذين كانوا

---

(١) عجائب ٢/ ٢٣١.

(٢) عجائب ٢/ ٢٦٢.

ينطقون الشهادتين بشكل آلي ليتزوجوا . وقد يبدو غريباً أن الجبرتي الذي استبشع مظاهر المرأة المتحررة لم يستبشع بنفس الدرجة انتشار الشذوذ الجنسي الذي كان منتشراً في مصر أيامها .

رابعاً: منهج الجبرتي في كتابة التاريخ .

سوف نتتبّع منهج الجبرتي في كتابة التاريخ في ثلاث نواح:

١ ـ في المصادر: كان الجبرتي على علم بمعظم كتب مؤرخي مصر العظام وغيرهم ، حيث يورد في مقدمة كتابه «عجائب الآثار » قائمة باسمائهم ومؤلفاتهم[١] ، كما كان له من وضعه الأجتماعي وثقافته واتصالاته الشخصية أكبر معين لتسجيل تاريخه ، خاصة في السنوات التي عاشها . ومع ذلك فلم تكن مهمة الجبرتي باليسيرة ، فكما يقول هو :

« فإذا لم نر من ذلك كله (أي كتب التاريخ) إلاّ بعض أجزاء مدشتة بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس ممّا تداولته أيدي الصحّافيين ، وباعها القَوَمة والمباشرون ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن

(١) عجائب الآثار ١/ ١٠ ـ ١١ ومن المؤرخين الذين أشار إليهم الجبرتي: الطبري ـ ابن الأثير ـ ابن الجوزي ـ ابن خلكان ـ السيوطي إلخ . . .

والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم»[1] .

وهكذا فأن الجبرتي أفتقد المصادر التاريخية التي تعينه على الكتابة بسبب تسربها أو دشتها في بعض المكتبات ، كما أن كثرة الفتن والصراع بين المماليك بعضهم مع بعض ، أو بينهم وبين العثمانيين أدت إلى ضياع الكثير منها فضلاً عن إن الفرنسيين أخذوا ما وجدوه منها إلى بلادهم .

ولم تكن الصعوبة التي واجهت الجبرتي مقتصرة على قلة المصادر التي رجع إليها وإنما في أن كتابة التاريخ كانت قد تدهورت ولم يعد لها احترامها لدى الخاصة في عصره ، إذا اعتبرته من أساطير الأولين ومن أفعال الدجالين « . . . ولم تزل الأمم الماضية . . تعتني بتدوينه سلفاً عن سلف وخلفاً بعد خلف إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدّوه من شغل البطّالين وقالوا أساطير الأولين»[2] .

ومن هنا سمت نفس الجبرتي إلى إرجاع مكانة هذا العلم وإعادته إلى سابق ازدهاره والمساهمة في إحياء الكتابة التاريخية وبعثها من جديد معللاً اتجاهه هذا بقوله :

«كان علم التاريخ علماً شريفاً ، فيه العظة والاعتبار ، وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من امثاله في هذه الدار ، وقد قص الله تعالى أخبار الأمم السالفة في أم الكتاب ، فقال

---

(1) عجائب الآثار ١/١١ .

(2) عجائب الآثار ١/٩ .

تعالى: ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ وجاء من أحاديث سيد المرسلين كثير من أخبار الأمم الماضين كحديثه عن بني اسرائيل وما غيروه من التوارة والأنجيل ، وغير ذلك من أخبار العجم والعرب ، مما يقتضي بمتأمله إلى العجب ، وقد قال الشافعي رضي الله عنه: من علم التاريخ زاد عقله»[1] .

بعد التمهيد والمقدمة ، يلم الجبرتي إلمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني . ويتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة ، وإن يكن تاريخه يبدأ بالفعل بالعام ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ ـ ١٦٨٩ هـ ، وذلك بحكم أن المقدمة لا تحتوي على أية مادة تاريخية إلاّ في القليل النادر . ثم والى تنسيق الأحداث على النمط الذي اختطه لنفسه ، فقسّم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ، وسار بالجزء الأول حتى عام ١١٨٩ حيث ينتهي عند نهاية مشيخة محمد بك أبو الذهب ، وبالجزء الثاني حتى آخر عام ١٢١٢ ويشمل عهدي إبراهيم بك ومراد بك ، وبالجزء الثالث حتى آخر عام ١٢٢٠ هـ عن الحملة الفرنسية حتى تولية محمد علي والجزء الرابع والأخير عن محمد علي حتى ١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م .

في بداية الجزء الأول نجد الجبرتي متحفظاً إلى أقصى حد فيما يتعلق بمصادر الفترات الأولى من الحكم العثماني لمصر ، وليس ثمة دليل على اشارته إلى ابن إياس والقرماني وابن زنبل

---

(١) عجائب الآثار ٩/١.

باعتبارهم ثقات عن الفتح العثماني ، إذ أن وصفه لهذه الحادثة من القصر بحيث لا يمكننا التحقق من مصادره خاصة إنه لم يشر إليها مما يحملنا على الاعتقاد بأن عناية الجبرتي بالتاريخ الإسلامي والتاريخ المصري في العصور الوسطى ضعيفة ، وإنه لم يطلع على كتابات المؤرخين في هذه الفترة ، بل لم يطلع على كتابات الكثيرين من المؤرخين في العصر العثماني نفسه ، فهو لم يذكر سوى أحمد شلبي عبد الغني الذي تناول تاريخ مصر من الفتح العثماني حتى سنة ١١٥٠ هـ واعتمد عليه الجبرتي في الفترة السابقة للقرن الثاني عشر .

ابتداء من ١١٠٠ هـ حتى ١١٧٠ هـ أخذ الجبرتي يعتمد في كتاباته عن هذه الفترة على ما يمكن أن نسميه بالمصادر الحية ، إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير ، فقد سجل حوادث السنوات الأولى عن أبيه ، وعن أصدقائه واساتذته من الشيوخ المعمرين ، ولم يقتصر على ذلك بل نراه يعتمد على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذي كان من عدول المحكمة ثم عمل أميناً لمحفوظات بعض الدواوين التي انشأها الفرنسيون في مصر ، حيث نجح عن طريقه في تدوين اسماء من يترجم لهم وأعمارهم من صكوك المحكمة وحججها ، وفي الأطلاع على كثير من الحجج أو الوثائق من دفاتر الكتبة والمباشرين . ثم لجأ الجبرتي إلى الطواف بالقرافات لقراءة النقوش على شواهد القبور ، والاتصال بأقرباء الذين ماتوا للرجوع إلى أوراقهم إن

كانت لهم أوراق وهذا ما عبّر عنه بقوله :

«فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما انتقش على أحجار ترب المقبورين ، وذلك من أول القرن إلى السبعين» .

ثم يتابع قائلاً: « وما بعدها إلى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا الحاضر أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها إلى أن تم ما قصدنا بأي وجه كان ، وانتظم ما أردنا استطراده من وقتنا إلى ذلك الأوان»[١] .

أي أن الجبرتي يدعي أنه منذ سنة ١١٧٠ هـ بدأ يعتمد على ذاكرته في تأريخ أحداث الفترة الممتدة ما بين ١١٧٠ ـ ١١٩٠ هـ ، وهي أحداث يدعي أنه عاينها لكنه لم يدونها في حينه ، وعندما بدأ بكتابة تاريخه عاد إلى ما لا يزال عالقاً بذاكرته منها ، ومن المستبعد ذلك لأن الجبرتي ولد سنة ١١٦٨ هـ ،والأرجح أنه ظل يعتمد على المصادر التي ذكرها آنفاً حتى ١١٩٠ هـ .

أما أحداث الفترة التي تبدأ بعام ١١٩٠ هـ فقد شاهدها الجبرتي ووعاها وأسهم فيها ، حيث أخذ يدون ملاحظاته عنها بشكل منتظم في صورة مسودات ، إلى أن عمل على جمعها وكتابتها بشكل تاريخي اعتباراً من سنة ١٢٢٠ هـ ، ففي الجزء

---

(١) عجائب الآثار ١٣/١ .

الأول يقول الجبرتي أن تاريخ جمع هذا الكتاب (وقتنا هذا) وفي أول الجزء الثاني يشير إلى وقتنا هذا بسنة ١٢٢٠ فيقول «هذا التاريخ الذي نمشي فيه لغاية سنة الف ومائتين وعشرين وفي آخر الجزء الثالث يعود فيقول : وسنقيد انشاء الله تعالى ما يتجدد بعدها من الحوادث من ابتداء سنة إحدى وعشرين التي نحن بها الآن إن امتد الأجل» .

لقد كان الجبرتي ، مثل معظم المؤرخين المسلمين ، يرى أن التاريخ يعتمد أساساً في كتابته على السماع والمشاهدة ، حتى أنه كان يأخذ ملاحظات يومية منذ عام ١١٩٠ هـ ١٧٧٦ م . وبفضل هذه الطريقة المثلى ساق في حولياته حشداً من الأخبار حتى شبه بابن إياس . وقد لجأ الجبرتي في نقل أخباره إلى عدة وسائل منها ما هو بالتواتر والاشتهار ، ومنها ما وصل إلى علمه يقيناً وثبت خبره لديه ، وبالرجوع إلى أفواه المسنين ، ويأخذ ما نقش على الحجر من المقبورين ، وحتى من الوثائق المترجمة عن المستندات الفرنسية الرسمية .

٢ ـ في طريقة التأليف وتنظيم المادة: يمكن أن نرد تقنية الجبرتي في التأليف إلى عمليتين اثنتين: جمع المادة وتنظيمها .

أ ـ جمع المادة: فأما جمع المادة فكان يتم على طريقتين:

الأولى: التقميش: وهو تخير المادة وانتقاؤها . ويلخص الجبرتي المنهج الذي اتبعه في تراجمه وتواريخه بقوله:

«إني كنت سودت أوراقاً في حوادث آواخر القرن الثاني عشر

وما يليه وأوائل القرن الثالث عشر الذي نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها ممن ادركناها وأمور شاهدناها ، واستطردت في ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشّيخَة تلقيتها وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم»[١] .

ويفهم من ذلك أن الجبرتي كان يعتمد في كتابته على ما يمكن أن نسميه بالمصادر الحية ، فقد سجل حوادث السنوات الأولى عن أبيه وعن أصدقائه وأساتذته من الشيوخ المعمرين ، كما إنه لا يقتصر على ذلك بل يعتمد على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الاطلاع على كثير من الحجج والوثائق ، فضلاً عن اتصاله بأقرباء الموتى وتردده على القبور لقراءة ما نقش على حجارتها . ثم يعمد إلى تسجيل ما يراه في أوراق أو بطاقات يسميها «طيارات» يخص كل واحدة منها بحادث معين ، الأمر الذي جعل من تسجيل الجبرتي للفترة التي عاشها مصدراً أساسياً ، خاصة وأنه ضمّنها كثيراً من الوثائق الرسمية كمنشور نابليون ومحاكمة سليمان الحلبي واللوائح والقوانين المختلفة التي كان يصدرها العثمانيون أو أمراء المماليك أو الفرنسيون ، وساعده على ذلك صلاته برجال الحكم فضلاً عن عضويته للديوان الذي انشأه مينو ، هذا على الرغم من أنه ابتعد عن

(١) عجائب الآثار ١/ ٥ .

محمد علي بل وقف موقف المعارض له ، إضافة إلى تسجيله ألوان الحياة التي كان يعيشها المجتمع المصري واهتمامه بالحالة الاقتصادية والأوبئة والطواعين والمجاعات التي اجتاحت البلاد ، إلى جانب وصف القاهرة وعطفاتها ومساجدها وقصورها وقلاعها .

الثانية: التعليق: وهو التسجيل اليومي المتتابع للأحداث ويشمل ما يعرفه الجبرتي منها مباشرة ، وما ينقله من حديث الآخرين . وقد اعتمد الجبرتي على ذاكرته بشكل محدود . لكنه بشكل عام كان يسجل ما يعرف أو يسمع من تعليقات بما يشبه المسودات ، ثم يعاود تنظيمها وضبطها في مواضعها . والجبرتي نفسه قليل التعليقات ، وهو يصوغ أحكامه غالباً في كلمات مبشرة تتضمن أحكاماً خلقية ، كقوله هذا التصرف «ظلم» أو «سخافة» أو «خزعبلات» أو إن هذا الأمر «شنيع جداً» وهذا الشخص «لعين وكافر» وبعضها عبارات لا تعكس رأياً في الحدث ولكن يوردها إستكمالاً للخبر . ولكن مع قلة تعليقات الجبرتي وندرتها فهي كفيلة بأن تكشف وجهة نظره إذا ما رصدت بشكل دقيق وقورنت بغيرها وربطت بالحدث التي تتلوه ، خاصة وأن الجبرتي عندما نسق كتابه قد زوده بمقدمة شبه نظرية حاول بها أن يقدم مفهومه للتاريخ ، ورأيه في العوامل التي تحكم سير المجتمع الإنساني .

ب ـ تنظيم المادة التاريخية :

أما تنظيم المادة فإن الجبرتي يسير على الطريقة الحولية المعروفة ، أي كتابة أحداث السنة مرتبة حسب الشهور والأيام ، وحينما ينتهي من أحداث سنة يبدأ في السنة التي تليها متبعاً نفس الأسلوب ، وهكذا . وفي ثنايا سرده للأحداث يسجل أسماء الوزراء والباشوات ووقت حضورهم للقاهرة ، ومدة إقامتهم في مصر ، والأحداث التي حدثت في عهد كل منهم . وحين يعزل الباشا يذكر ذلك ضمن أحداث العام الذي يدون أحداثه ، ثم يذكر تراجم من توفي من العظماء في كل عام . وهو يحرص ، دائماً على أن يقدم تراجم من يموت من العلماء على تراجم الأمراء مهما علا شأنهم ، ولا يخلطهم بغيرهم ، أو يخل بتلك القاعدة في أي سنة من السنوات التي أعقبها بذكر تراجم الوفيات .

خامساً: أسلوب الجبرتي .

رغم دقة الجبرتي وكفايته في تدوين الحوادث ، ومداومته على البحث والاستقراء ، لم يكن أسلوبه يسير على نسق واحد ، بل كان مصرياً عامياً كثير الأغلاط في المفردات وفي العبارة . ولم يلتزم الجبرتي السجع ولكنه أحياناً يتفصّح به في غير موضعه فيبدو ظريفاً مضحكاً . وقد اعتذر الجبرتي في مؤلفه عن ضعف أسلوبه وتقصيره وأخطائه بقوله: «هذا مع اعترافي بقصور الباع ، وفتور الطباع ، في قوانين المعاني العربية

ودواوين المثاني الأدبية» . ورغم ذلك فقد اختلفت التفسيرات حول ضعف أسلوب الجبرتي وكثرة أخطائه فيرى البعض أن وجود الأخطاء النحوية ليس دليلاً على جهل الجبرتي بها ، فهو تعلّم في الأزهر حتى تخرج منه ، وإنه قد درس على أشياخه علم اللغة والدين تلك العلوم التي تمثل الثقافة السائدة في ذلك العصر ، وبذلك تحقق انتماؤه إلى فئة المثقفين ثقافة لغوية ودينية ، وبالتالي فمن غير المعقول أن نفسر كثيراً مما نلاحظه على لغته على أساس أنه قد أخطأ من وجهة نظر العربية الفصحى كما دون قواعدها سيبويه ومن خلفه من اللغويين العرب ، وكما درسها الجبرتي في حلقات الدروس في الأزهر وبين اروقته . أي إن الجبرتي كما تكشف لنا ثقافته وثقافة عصره كان يجيد قواعد القدامى ويطبقها في كثير من الأحيان ، وما خروجه على المعروف من قواعد اللغة الفصحى ، وانطلاقه على سجيته متبعاً قواعد الفصحى أحياناً ، ومقترضاً من العامية أو من غيرها من اللغات السائدة أحياناً أخرى ، ومتأثراً بهذه أو بتلك في بعض الأحايين ، إلاّ لأن طبيعة الموضوع الذي كتب فيه الجبرتي ، وهو التأريخ لعصره ولرجالاته حتمت عليه عدم اللجوء إلى اللغة المصنوعة المليئة بالمحسنات البديعية والزخارف اللفظية ، لأن ذلك اللجوء ، فضلاً عن صعوبته القصوى نظراً للكم الكبير لما كتب الجبرتي ، لا يساير طبيعة موضوعاته الجزئية التي تمثل الحياة بكل مظاهرها ، كالموالد والمآتم والأفراح والحج

والمظاهرات والثورات والاحتفالات والنقد والتقريظ ، والضيق من محمد علي ، والتعصب للمماليك ،ووصف مظاهر الحياة الأوروبية كما وصلت إلى مصر على يد علماء الثورة الفرنسية ، ووصف القناطر والفيضانات والضرائب والحروب وأعمال الدواوين والمؤتمرات والانقلابات وغيرها ، ناهيك أن على من يكتب عن الحياة الإجتماعية مطالب بأن يكتب بلغة هذه الحياة ، لأنه من الصعب على مثقف أزهري كالجبرتي أن يكتب بالفصحى على طول الخط من جهة ، ومن الصعب على الفصحى الرسمية أن تساير طبيعة موضوعاته من جهة أخرى حيث انحدر مستواها وضعف بناؤها ودارت في تلك المحسنات السقيمة والزخرف الممجوج . لذا أصبح من المحتم على الجبرتي أن يوفق في لغته بين المستوى الفصيح والمستوى العامي ، مقترضاً من العامية صيغاً أو تعابير أو فقرات بأكملها ، ليعبر لمجتمعه عما يراه بلغة هذا المجتمع[1] لذا آثر أن يكون قريباً من العامة في تعبيره وأن تبقى اخطاؤهم في تعبيرهم وفي كتابه. ويعلل البعض الآخر هذه الظاهرة بأن الجبرتي لم يفرغ للأدب ولا مهر فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ، ثم عمد إلى التاريخ ، فسبيله الدقة والتمحيص

---

(١) رفعت الفرنواني: لغة الجبرتي ضمن دراسات وبحوث عن الجبرتي ص ٢٥٦ ـ ٢٨٨.

والرصد والتوقيت ، والعبر والمعاناة ، والقيام أحسن قيام على تدوين الوقائع ، وقد وفى الجبرتي بذلك كله . أما اللغة وتراكيبها وبدائعها فصناعة أخرى تحتاج إلى مثل الوقت الذي ألّف فيه كتابه ، لا سيما وإن الجبرتي ربما مات عن مسودات كتاب لا عن كتاب . ويعتقد أصحاب هذا الرأي بأنه لو كان العمر قد طال به لنقّح وهذّب وفتش ، وأضاف إلى صناعة التاريخ صناعة الكتابة . وإذا كانت بعض عبارات الجبرتي قد تميزت بحسن اللغة والتعبير فمرد ذلك إلى المصطلحات والألفاظ الشرعية السائدة في الفقه والحديث والتفسير والمعاملات ، والعبارات المحفوظة المتلقاة عن كتب الادب . وأياً ما كان الأمر ، فقد غلب على الجبرتي طابع العصر الذي عاش فيه ، فكانت لغته تمثل لغة المثقفين في عصره ثقافة لغوية دينية مصدرها الأزهر في ذلك الوقت .

سادساً: تقويم اسهامات الجبرتي التاريخية .

يمثل الجبرتي الحلقة الأخيرة في كتابة التاريخ بالطريقة التي درج عليها المؤرخون المسلمون في العصور الوسطى ، مع الأخذ بعين الاعتبار حالة الركود والجمود الثقافي الذي عانت منه مصر في العصر العثماني وانعكاساته على كتابات الجبرتي . ولعل ما يضفي الأهمية على كتابات الجبرتي انها تكاد تكون المصدر الوحيد الذي كتب عن تاريخ مصر ، في القرنين السابع

عشر والثامن عشر ، والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، بدقة وشمول لا نظير لهما . ومن هنا تبرز مكانة الجبرتي ، كأول مؤرخ مصري يظهر بعد ابن إياس ، بعد أن خلت مصر أو كادت تخلو ، من المؤرخين الكبار ما يقرب من ثلاثة قرون .

وشأن الجبرتي شأن غيره من المؤرخين ، يبدأ تأريخه في فترات بعيدة ، وان كان مع ذلك يتميز بعدم اسهابه في تأريخه للعصور السابقة . لكن أهميته تبرز عندما يأتي إلى العصر الذي يعيش فيه ، حيث يبدأ تفصيله للأحداث ، وهنا تظهر اصالته .

ولعل الجبرتي كان آخر من كتب الحوليات في مصر بمنحاها التقليدي ، كما أن الطابع العام لكتاباته هو سرد الأحداث وتفصيلها ، حتى انها تبدو غير مترابطة يعوزها التوحيد والتأليف بين جزئياتها . كما تصادف كثيراً من التكرار الذي وقع فيه ، مما يدل على انه كان يسترسل في كتاباته استرسالاً ، دون ان يُعنى كثيراً بمراجعة ما يكتب أو التركيز عليه . ولا يقلل ذلك من أهمية الجبرتي ، إذ أنه استطاع بفضل هذا الاسترسال والسرد ان يقدم صورة كاملة للمجتمع المصري خلال العصر العثماني ، كما نجح في ابراز الشخصية المصرية . كما أنه كثيراً ما عمد إلى استخدام الأمثال الشعبية التي لا يزال كثير منها متداولاً إلى اليوم .

وقد اتبع الجبرتي في كتاباته منهجاً يتسم بالدقة ، دقة المؤرخ واستقصاؤه للحوادث ، وتحفظه في ذكرها ، فهو يقول في

مستهل حديثه عن عام ١٢٢٥ هـ «وانقضت السنة بحوادثها التي قصصت بعضها ، إذ لا يمكن استيفاؤها ، للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها في الصحة وتحريف النقلة ، وزيادتهم ونقصهم في الرواية ، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف ، وربما أخّرت قيد حادثة حتى أثبتها ، ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها في طيارة حتى أقيّدها في محلها إن شاء اللّه عند تهذيب هذه الكتابة» . وفي معرض كلامه عن تراجم الأمراء يقول: «ولم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي ، واللّه مطلع على أمري وحدسي» .

كما يتسم كتاب الجبرتي بالموضوعية التي تظهر من خلال دقته ، وكذلك من تأكيده انه يكتب للحقيقة والتاريخ فهو يقول في مستهل كتابه .

«ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن في دولة بنفاق ، أو مدح ، أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسي أو غرض جسماني» ، فالجبرتي كان في سعة من الرزق ، كما رأينا ، بحيث لم يكن يهتم أن تكون كتاباته وسيلة للتكسب والعيش ، وانما كتب تراجمه وأخباره من باب الهواية الخاصة . ولا ننسى ان الجبرتي دخل التاريخ من باب التراجم ، وربما تتضح التراجم أكثر بروزاً في الجزئين الأول والثاني ، بينما تبدو عنايته بتسجيل الأحداث والوقائع أكبر

في الجزئين الثالث والرابع . ولعل ذلك يتضح من تسمية كتابه «عجائب الإشارة في التراجم والأخبار» . حيث قدم التراجم على الأخبار وقد أطنب كثير من المستشرقين في التنويه بأهمية تاريخ الجبرتي باعتباره من أعظم مصادر تاريخ مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ، أو باعتباره مكملاً لتاريخ ابن إياس «بدائع الزهور في وقائع الدهور» . كما ان ما يضفي أهمية على الجبرتي انه لم يهتم بالتراجم أو الأحداث السياسية ، كأحوال مصر العثمانية ، وأحداث الحملة الفرنسية ، وظهور محمد علي ، فحسب ، بل ان كتاباته تعد سجلاً حافلاً بألوان الحياة التي كان المجتمع المصري يعيشها في عصره ، حتى ان قارىء الجبرتي يكاد يستنشق جو الحياة الاجتماعية الذي كان سائداً في مصر ، خاصة المجتمع القاهري ، بطوائفه ومتصوفيه ، وأرباب حرفه ، فضلاً عن اهتمامه بالحالة الاقتصادية والأوبئة والطواعين والمجاعات التي اجتاحت البلاد ، إلى جانب وصف القاهرة وعطفاتها ومساجدها وقصورها وملاعبها ، بل حتى توافه الأشياء ، وما أكثرها ، التي كان يدخلها ، والتي كانت سبباً في توجيه سهام النقد إليه ، يمكن أن تلقي ضوءاً على طبيعة الحياة التي كانت سائدة في مصر . وكتابات الجبرتي بكل ما فيها . تسجيل حي لمرحلة من مراحل تاريخ مصر بمختلف أبعادها السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية ، بحيث انها نكاد نطالع فيها جديداً كلما عاودنا

قراءتها ، وأمعنا النظر فيما تحتويه .

على ان كتابات الجبرتي لم تسلم من سهام النقد ، حيث أخذ عليه البعض ، عدة من مواقفه التي يتجه فيها إلى النظرة السطحية والساذجة ، فضلاً عما يجنح إليه في بعض المواقف من التسليم بالغيبيات ، فهو مثلاً لا يستبعد وجود الجن ، أو قدرة بعض البلهاء على الكشف عن ضمائر الناس وغير ذلك من الغيبيات والكرامات التي وصف الكثيرين بها ولم يستبعدها . كما انه لم يرتفع ، كمؤرخ سياسي ، بتفكيره خارج حدود مصر وعلاقاتها التقليدية بالدولة العثمانية ، وبالتالي لم يكن يدري مجرى السياسة الخارجية وتأثيرها على بلاده ، إضافة إلى أن أحكامه كانت تجيىء وفقاً لمفهومه الديني حيث لم يستوعب حقيقة ظروف وأهداف الحملة الفرنسية أو أسباب انسحابها من مصر ، والذي يرتبط بتغييرات حدثت في السياسية الأوروبية . فجاء تعليقه على خروجهم بأن اللّه سلّط عليهم من كان سبباً في التخلص منهم . كما لم يدرك قيمة التغييرات التي بدأ محمد علي بأحداثها تمهيداً لبناء الدولة الحديثة واقامة المشروعات العامة التي كانت البلاد في مسيس الحاجة إليها ، فجاء حكمه عليه مستنداً على أساس اخلاقي ومن منطلق كونه ينتهي إلى الفئات التي اضيرت باجراءاته .

ويبقى أخيراً انه لولا كتابات الجبرتي لخفيت علينا أمور كثيرة ، ولسوف تظل من المصادر الأساسية لتاريخ مصر في

القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر بحيث لن يستطيع أي باحث أن يتجاهلها عند تصديه لكتابه تاريخ مصر في مختلف مجالاته السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية في تلك الفترة .

الفصل الخامس:
مقتطفات من كتابات الجبرتي

المنشور الذي وجهه نابليون إلى المصريين

(الجبرتي: عجائب الاثارة/ ١٨٢ ـ ١٨٤ .ط دار الجيل)

كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسوماً وطبعوه، وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التي يقدمون عليها تطميناً لهم، ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم، وحضر منهم جملة إلى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو يومين، ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس، وهم على شكلهم، من كفار مالطة ويعرفون اللغات.

وصورة ذلك المكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير، أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهل مصر جميعهم أن من زمان مديد

الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرّنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازه والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها. فأمّا ربُّ العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم. يا أيها المصريون، قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلاّ بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين أنني ما قدمت إليكم إلاّ لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم، وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم ، هو العقل والفضائل والعلوم فقط. وبين المماليك والعقل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان، والخيل العتاق، والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخوال في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء. والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك

يصلح حال الأمة كلها ، وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة، والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد، قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى، وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين. ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه. ومع ذلك أن المماليك امتنعوا عن إطاعة السلطان، غير ممتثلين لأمره، فما أطاعوا أصلا إلاّ لطمع أنفسهم، طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم، طوبى أيضاً للذين يقعِدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب. لكن الويل، ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواقع التي يمر بها عسكر الفرنساوية، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار

إليه أنهم أطاعوا، وإنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر.

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضاً تنصب صنجاق السلطان العثماني محبّنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد يختمون حالاً جميع الارزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة انهم يلازمون وظائفهم، وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً وكذلك الصلاة قائمة في الجوامع على العادة. والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالي: أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريراً بمعسكر اسكندرية في ١٣ شهر سيدور سنة ١٢١٣ من إقامة الجمهور الفرنساوي، يعني في آخر شهر محرم سنة هجرية.

ثورة القاهرة الأولى عاشر جمادى الأولى ١٢١٣ هـ

(الجبرتي: عجائب الآثار ٢/٢١٨ ـ ٢٢١ ط دار الجيل)

وفي يوم السبت عاشر جمادى الأول عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة، والأوسط ستة، والأدنى ثلاثة، وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى، وأما الوكائل والحانات الحمامات والمعاصر والسيار والحوانيت، فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخمسة والرواج والاتساع، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخاً للأعيان، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى، وشرعوا في الضبط والإحصاء، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها.

ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك، والبعض استسلم للقضاء. فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم، ولا قائد يقودهم، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح، وحضر السيد بدر

وصحبته عشرات الحسينية وزعر الحارات البرانيّة ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح في الكلام: نصر الله دين الإسلام. فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر وتجمعوا، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر. فخاف القاضي العاقبة، وأغلق أبوابه، وأوقف حجّابه، فرجموه بالحجارة والطوب، وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب: وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر. وفي ذلك الوقت حضر دبوي بطائفة من فرسانه وشجعانه فمر بشارع الغورية، وعطف على خط الصنادقية، وذهب إلى بيت القاضي فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة، وتلك الأخطاط بالخلق مزحومة، فبادروا إليه وضربوه، وأثخنوا جراحاته، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه، فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم، وخرجوا يهرعون، ومن كل حدب ينسلون. ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كباب الفتوح، وباب النصر والبرقية إلى باب زويله وباب الشعرية، وجهة البندقانيين، وما حاذاها، ولم يتعدوا جهة سواها، وهدوا مساطب الحوانيت، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس.

وأما الجهات البرانيّة والنواحي الفوقانية، فلم يفزع منهم فازع، ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع، وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر.

ولم تزل طائفة المحاربين في الأزقة متمترسين، فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخلية وبندقوا على متراس الشوائين، وبه جماعة من مغاربة الفحامين فقاتلوهم حتى أجلوهم وعن المناخلية أزالوهم. عند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال وخرجت العامة عن الحد، وبالغوا في القضية بالعكس والطرد، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب، فهجموا على حارة الجوانية، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا الودائع والأمانات، وسبوا النساء والبنات، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات، وأكثروا من المعايب، ولم يفكروا في العواقب. وباتوا تلك الليلة سهرانين، وعلى هذا الحال مستمرين.

وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين، وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات، ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين. وكان كبير الفرنسيس أرسل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها. وملّ من المطاولة هذا، والرمي متابع من الجهتين، وتضاعف الحال ضعفين، حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر، فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات، على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحّامين: فلما سقط عليهم

ذلك ورأوه، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه، نادوا يا سلام من هذه الآلام، يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف وهربوا من كل سوق، ودخلوا في الشقوق.

فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب، ركبت المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل. فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير واتهمهم في التقصير. فاعتذروا إليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم. وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك. وتسامع الناس بذلك، فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة، وأطمأنت منهم القلوب، وكان الوقت قبل الغروب. وانقضى النهار وأقبل الليل، وغلب على الظن أن القضية لها ذيل.

وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فإنهم لم يزالوا مستمرين، وعلى الرمي والقتال ملازمين، ولكن خانهم المقصود، وفرغ منهم البارود والافرنج أثخنوهم بالرمي المتابع بالقنابر والمدافع، إلى أن مضى من الليل ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الآلات فعجزوا عن ذلك وانصرفوا، أو كفّ عنهم القوم وانحرفوا. وبعد هجعة الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل... ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا

ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا، تمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه من ثيابه وأخرجوه.

وأصبح يوم الثلاثاء فاصطف منهم حزب بباب الجامع، فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعاً ويسارع... ثم ترددوا في الأسواق ووقفوا صفوفاً مثيناً وألوفاً، فإن مر بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه، وربما قتلوه، ورفعوا القتلى والمطروحين، من الافرنج والمسلمين. ووقف جماعة من الفرنسيس ونظفوا مراكز المتاريس، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة ووضعوها في ناحية لتصير طريق المرور خالية.

وتحزبت نصارى الشوام، وجماعة أيضاً من الأروام الذين انتهبت دورهم بالحارة الجوانية ليشكوا لكبير الفرنسيس ما لحقهم من الزرية. واغتنموا الفرصة في المسلمين وأظهروا ما هو بقلوبهم مكين، وضربوا فيهم المضارب وكأنهم شاركوا الافرنج في النوائب. وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم إلاّ لكونهم منسوبين إليهم، مع أن المسلمين الذين جاوروهم نهبهم الزعر أيضاً وسلبوهم، وكذلك خان الملايات المعلوم الذي عند باب حارة الروم فيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين. فسكت المصاب على غصته واستعوض الله في قضيته

لأنه إن تكلم لا تسمع دعواه ولا يلتفت إلى شكواه.

... وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم، وأصبح يوم الأربعاء فركب فيه المشايخ أجمع، وذهبوا إلى بيت صاري العسكر وقابلوه وخاطبوه في العفو ولاطفوه والتمسوا منه أماناً كافياً وعفواً ينادون به باللغتين شافياً لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية، فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويف وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبّب من المتعممين في إثارة العوام... فترجوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر، فأجابهم لذلك السؤال وأمر بإخراجهم في الحال وأبقوا منهم السبعين أسكنوهم في الخطة كالظابطين ثم فحصوا على المتهمين في إثارة الفتنة فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ إسماعيل البراوي وحبسوهم ببيت البكري، وأما السيد بدر المقدسي فأنه تغيب وسافر إلى جهة الشام، وفحصوا عليه فلم يجدوه... وفي ليلة الأحد.. طلبوا المشايخ المحبوسين عند صاري عسكر ليتحدث معهم فلما صاروا خارج الدار صعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح، فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة.

نشاطات علمية لعلماء رافقوا الحملة الفرنسية

الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ٢٣٢ وما بعدها

ومنها إنهم أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية ابنية وكرانك وأبراجاً ووضعوا فيها عدة من الآت الحرب والعساكر المرابطين فيه، وهدموا عدة دور من دورالأنقاض وأخذوا أنقاضها ورخامها لأبنيتهم، وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت مثل بيت قاسم بك وأمير الحاج المعروف بأبي يوسف، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد الذي أنشأه وشيّده وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة من مظالم العبادة، وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة ففر مع الفارين، وتركه فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزّان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة، ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخزن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاه عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر. وإذا

حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها، والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم، مما يحير الأفكار. ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي ﷺ ومصوّرون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظراً إلى السماء كالمرهب للخليقة، وبيده اليمنى السيف، وفي اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم السيوف. وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين، وفي الأخرى صورة المعراج والبراق، وهو ﷺ راكب عليه من صخرة بيت المقدس، وصورة بيت المقدس والحرم المكي والمدني، وكذلك صورة الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين. ومثال اسلامبول وما بها من المساجد العظام كأيا صوفية، وجامع السلطان محمد وهيئة المولد النبوي، وجمعية أصناف الناس لذلك، وكذلك السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعة فيه، وأبي أيوب الانصاري وهيئة صلاة الجنازة فيه، وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابي الصعيد

والصور والأشكال والأفلام المرسومة، وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم. ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض ويعبرون عنه شفاء شريف، والبردة للبوصيري ويحفظون جملة من أبياتها، وترجموها بلغتهم، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن الكريم ولهم تطلع زائد إلى العلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات. واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق، ويدأبون في ذلك الليل والنهار، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتعاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أية لغة كانت إلى لغاتهم في أقرب وقت.

وعند توت الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه، وهي تركب ببراريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة، بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدراً من الفراغ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئي، وإذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير، وكذلك نظارات للنظر في الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها

واتصالاتها ومناظرتها وأنواع المنكابات والساعات التي تسير بثواني الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن وغير ذلك.

ومنهم أريجو المصور وهو يصور صور الأدميين تصويراً يظن من يراه إنه بارز في الفراغ بجسم يكاد ينطق، حتى إنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته في دائرة وكذلك غيرهم من الأعيان، وعلقوا ذلك في بعض مجالس صاري عسكر. وآخر في مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذي لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته في ماء مصنوع حافظ للجسم، فيبقى على حالته وهيئته ولا يتغير ولا يبلى ولو بقي زمناً طويلاً.

وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصنّاع الدقائق، وسكن الحكيم رويا ببيت ذي الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية، وركّب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح وقدوراً عظيمة وبرامات، وجعل له مكاناً أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة، وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحية.

وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوي، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة

الوضع، وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات، وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلوري المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها أنواع المستخرجات.

ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصبّ منها شيئاً في كأس، ثم صبّ عليها شيئاً من زجاجة أخرى. فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل كذلك بمياه أخرى، فجمد حجراً أزرق، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً. وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانه انزعجنا منه فضحكوا منه.

وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة الفم، فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأثر لهما في الماء وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء في أحدهما، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك منهم الزجاجة من الماء، وقرب

الآخر الشعلة إليها في الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضاً. وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع.

ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف، ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها، ولمس آخر الزجاجة الدائرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى، ارتج بدنه، وارتعد جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجّة سريعة. ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه، أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفاً أو أكثر، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا...

أسباب تراجع بونابرت عن عكا

(الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ٢٨٨ وما بعدها)

ولما عجز الفرنساوية عن أخذ عكا وعزموا على الرجوع إلى مصر، أرسل بونابرته مكاتبة إلى الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها أن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً.

الأول: الإقامة تجاه البلدة وعدم الحرب ستة أيام إلى أن جاءت الأنكليز وحصنوا عكا باصطلاح الافرنج.

الثاني: الستة مراكب التي توجهت من الاسكندرية فيها المدافع الكبار أخذها الأنكليز قدام يافا.

الثالث: الطاعون الذي وقع في العسكر ويموت كل يوم خمسون وستون عسكرياً.

الرابع: عدم الميرة لخراب البلاد قريب عكا.

الخامس: وقعة مراد بك مع الفرنساوية في الصعيد مات فيها مقدار ثلثمائة فرنساوي.

السادس: بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الحجاز.

السابع: المغربي محمد الذي صار له جيش كبير وادعى أنه من سلاطين المغرب.

الثامن: ورود الأنكليز تجاه الاسكندرية ودمياط.

التاسع: ورود عمارة الموسقو قدام رودس.

العاشر: ورود خبر نقض الصلح بين الفرنساوية والنيمساء.

الحادي عشر: ورود جواب مكتوب منا لتيبو أحد ملوك الهند كنا أرسلناه قبل توجهنا إلى عكا، وتيبو هذا هو الذي كان حضر إلى إسلامبول بالهدية التي من جملتها طائران يتكلمان الهندية والسرير والمنبر من خشب العود، وطلب منه الامداد والمعاونة على الانكليز المحاربين له في بلاده، فوعدوه ومنّوه، وكتبوا له أوراقاً وأوامر. وحضر إلى مصر وذلك سنة ١٢٠٢ أيام السلطان عبد الحميد. وقد سبقت الإشارة إليه في حوادث تلك السنة. ثم أنه توجه إلى بلاد فرنسا واجتمع بسلطانها وذلك قبل حضوره إلى مصر واتفق معه على أمر في السر لم يطلع عليه أحد غيرهما، ورجع إلى بلاده على طريق القلزم. فلما قدم الفرنساوية لمصر كاتبه كبيرهم بذلك السر لأنه أطلع عليه عند قيام الجمهور وتملكه خزانه كتب السلطان. ثم أن تيبو المذكور بقي في حرب الانكليز إلى أن ظفروا به في هذه السنة وقتلوه وثلاثة من أولاده، فهذا ملخص معنى السبب.

الثاني عشر: موت كفرللي الذي عملت المتاريس بمقتضى رأيه، وإذا تولى أمرها غيره يلزم نقضها ويطول الأمر وكفرللي هذا هو المعروف بأبي خشبة المهندس.

الثالث عشر: سماع أن رجل يقال له مصطفى باشا أخذه الأنكليز من أسلامبول ومرادهم أن يرموه على بر مصر.

الرابع عشر: أن الجزار أنزل ثقله بمراكب الأنكليز وعزم على أنه عندما تملك البلد ينزل في مراكبهم ويهرب معهم.

الخامس عشر: لزوم ومحاصرة عكا ثلاثة شهور أو أربعة وهو مضر لكل ما ذكرناه من الأسباب انتهى.

مقتل الجنرال كليبر على يد سليمان الحلبي ومحاكمته

(الجبرتي: عجائب الآثار ١٢ ـ ٣٥٨ ـ ٣٦٠. ط. دار الجيل)

... وفي ذلك اليوم، أعني يوم السبت وقعت نادرة عجيبة وهو إن سارى عسكر كلهبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذي بداره بالازبكية، فدخل عليه شخص حلبي وقصده فأشار إليه بالرجوع وقال له: ما فيش، وكررّها، فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها. فلما دنا منه مدّ إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده، فمد إليه الآخر يده. فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعدّه في يده اليمنى أربع ضربات متوالية. فشق بطنه وسقط إلى الأرض صارخاً. فصاح رفيقه المهندس. فذهب إليه وضربه أيضاً ضربات. وهرب فسمع العسكر الذين خارج الباب صرخة المهندس فدخلوا مسرعين، فوجدوا كلهبر مطروحاً وبه بعض الرمق، ولم يجدوا القاتل. فانزعجوا وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين وجروا من كل ناحية يفتشون على القاتل. واجتمع رؤساؤهم وأرسلوا العساكر إلى الحصون، وظنوا إنها من فعل أهل مصر فاحتاطوا بالبلد وعمروا المدافع وحرروا القنابر وقالوا لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم. ووقعت هوجة عظيمة في الناس وكرشة وشدة انزعاج، وأكثرهم لا يدري حقيقة الحال.

ولم يزالوا يفتشون عن ذلك القاتل حتى وجدوه منزوياً في البستان المجاور لبيت سارى عسكر المعروف بغيط مصباح، بجانب حائط منهدم. فقبضوا عليه فوجدوه شامياً، فأحضروه وسألوه عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه حلبياً، واسمه سليمان فسألوه عن محل مأواه فأخبرهم أنه يأوي ويبيت بالجامع الأزهر. فسألوه عن معارفه ورفقائه وهل أخبر أحداً بفعله وهل شاركه أحد في رأيه وأقرّه على فعله أو نهاه عنه ذلك وكم له بمصر من الأيام والشهور، وعن صنعته وملّته، وعاقبوه حتى أخبرهم بحقيقة الحال. فعند ذلك علموا ببراءة أهل مصر من ذلك وتركوا ما كانوا عزموا عليه من محاربة أهل البلد.

وقد كانوا أرسلوا أشخاصاً من ثقاتهم تفرقوا في الجهات والنواحي يتفرسون في الناس فلم يجدوا فيهم قرائن دالة على علمهم بذلك، ورأوهم يسألون الفرنسيس عن ذلك الخبر، فتحققوا من ذلك براءتهم.

ثم أنهم أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ أحمد العريشي القاضي وأعلموهم بذلك، وعوّقوهم إلى نصف الليل وألزموهم بإحضار الجماعة الذين ذكرهم القاتل، وإنه أخبرهم بفعله. فركبوا وصحبتهم الآغا، وحضروا إلى الجامع الأزهر وطلبوا الجماعة، فوجدوا ثلاثة منهم، ولم يجدوا الرابع. فأخذهم الآغا وحبسهم ببيت قائمقام بالأزبكية.

ثم إنهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم في دعاوي القصاص وحكموا بقتل الثلاثة أنفار المذكورين مع القاتل، وأطلقوا مصطفى أفندي البرصلي لكونه لم يخبره بعزمه وقصده، فقتلوا الثلاثة المذكورين لكونه أخبرهم بعزمه على قصده صبح تاريخه، ولم يخبروا عنه الفرنسيس، فكأنهم شاركوه في الفعل.

وانقضت الحكومة على ذلك، وألقوا في شأن ذلك أوراقاً ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها، وطبعوا منها نسخاً كثيرة باللغات الثلاث الفرنساوية والتركية والعربية. وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم في اللغة. ثم رأيت كثيراً من الناس تتشوق نفسه للاطلاع عليها لتضمينها خبر الواقعة وكيفية الحكومة، ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل، ولا يتدينون بدين، وكيف، وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقي أهوج وغدره، وقرّروه ولم يعجلوا بقتله. وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار، بعد أن عثروا عليه، ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم ساری عسكريهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة، وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام، مرة بالقول، ومرة بالعقوبة. ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد وهم مجتمعين. ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم، وأطلقوا

مصطفى أفندي البرصلي الخطاط، حيث لم يلزمه حكم، ولم يتوجه عليه قصاص، كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أوباش العساكر، الذين يدّعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون، وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية.

قضاء محمد علي على المماليك

الجبرتي : عجائب الآثار ٣ / ٣١٩ وما بعدها

وفيه (المحرم ١٢٢٦ هـ) قلّد الباشا ابنه طوسون باشا ساري عسكر الركب الموجه إلى الحجاز وأخرجوا جيشهم إلى ناحية قبة الغرب ، ونصبوا عرضياً وخياماً ، وأظهر الباشا الاجتهاد الزائد والعجلة وعدم التواني ، ونوّه بتفسيير عساكر لناحية الشام لتمليك يوسف باشا لمحله ، وساري عسكرهم شاهين بك الألفي ونحو ذلك من الايهامات . وطلب من المنجمين أن يختاروا وقتاً صالحاً لإلباس ابنه خلعة السفر ، فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة . فلما كان يوم الخميس رابعه ، طاف الآي جاويش بالأسواق على صورة الهيئة القديمة في المناداة على المواكب العظيمة وهو لابس الضلمة والطبق على رأسه ، وراكب حمار عال وأمامه مقدم بعكاز ، وحوله قابجية ينادون بقولهم يارن الآي يكررون ذلك في أخطاط المدينة .

وطافوا بأوراق التنابية على كبار العسكر والبينبات والأمراء المصرية الألفية وغيرهم يطلبونهم للحضور في باكر النهار إلى القلعة ليركب الجميع بتجملاتهم وزينتهم أمام الموكب . فلما

أصبح يوم الجمعة سادسه ركب الجميع وطلعوا إلى القلعة ، وطلع المصرية بمماليكهم واتباعهم وأجنادهم ، فدخل الأمراء عند الباشا وصبّحوا عليه وجلسوا معه حصة وشربوا القهوة وتضاحك معهم . ثم أنجر الموكب على الوضع الذي رتبوه ، فانجر طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون علي ، ومن خلفهم طوائف العسكر الرجالة والخيالة والبيكباشيات وأرباب المناصب منهم ، وإبراهيم أغا أغات الباب وسليمان بك البواب يذهب ويجيء ويرتب الموكب وكان الباشا قد بيّت مع حسن باشا وصالح قوج ، والكتخدا فقط غدر المصرية وقتلهم وأسر بذلك في صبحها إبراهيم أغا آغات الباب . فلما انجر الموكب ، وفرغ طائفة الدلاة ومن خلفهم من الوجاقلية والالداشات المصرية ، وانفصلوا من باب الغرب ، فعند ذلك أمر صالح قوج بغلق الباب ، وعرف طائفته بالمراد ، فالتفتوا ضاربين بالمصرية وقد انحصروا بأجمعهم في المضيق المنحدر الحجر المقطوع في أعلى باب الغرب ، مسافة ما بين الباب الأعلى الذي يتوصل منه إلى رحبة سوق القلعة ، إلى الباب الأسفل ، وقد أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على علاوي النقر الحجر والحيطان التي به . فلما حصل الضرب من التحتانيين اراد الأمراء الرجوع القهقرى ، فلم يمكنهم ذلك لانتظام الخيول في مضيق النقر . وأخذهم ضرب البنادق والقرابين من خلفهم أيضاً وعلم العسكر الواقفون بالأعلى المراد فضربوا أيضاً . فلما نظروا ما حلّ بهم سقط في

أيديهم وارتبكوا في أنفسهم ، وتحيروا في أمرهم ، ووقع منهم أشخاص كثيرة فنزلوا عن الخيول واقتحم شاهين بك وسليمان بك البواب ، وآخرون في عدة من مماليكهم راجعين إلى فوق والرصاص نازل عليهم من كل ناحية . ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة ولم يزالوا سائرين وشاهرين سيوفهم حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعدة الأعمدة وقد سقط أكثرهم . وأصيب شاهين بك وسقط إلى الأرض فقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى الباشا ليأخذوا عليها البقشيش . وكان الباشا عندما ساروا بالموكب ركب من ديوان السراية وذهب إلى البيت الذي به الحريم ، وهو بيت إسماعيل أفندي الضربخانة . وأما سليمان بك البواب فهرب من حلاوة الروح وصعد إلى حائط البرج الكبير ، فتابعوه بالضرب حتى سقط ، وقطعوا رأسه أيضاً . وهرب كثير إلى بيت طوسون باشا يظن الالتجاء به والإحتماء فيه ، فقتلوهم . وأسرف العسكر في قتل المصريين وسلب ما عليهم من الثياب ، ولم يرحموا أحداً . وظهر كامن حقدهم وضبعوا فيهم وفيمن رافقهم متجملاً معهم من أولاد الناس وأهالي البلد الذين تزيوا بزيهم لزينة الموكب ، وهم يصرخون ويستغيثون ، ومنهم من يقول أنا لست جندياً ولا مملوكاً ، وآخر يقول أنا لست من قبيلتهم ، فلم يرقّوا لصارخ ولاشاك ، ولا مستغيث . وتتبعوا المتشتتين والهربانين في نواحي القلعة وزواياها والذين فروا ودخلوا في البيوت والأماكن وقبضوا

على من أمسك حياً ولم يمت من الرصاص ، أو متخلفاً عن الموكب وجالساً مع الكتخدا ، كأحمد بك الكيلارجي ويحيى بك الألفي ، وعلي كاشف ، فسلبوا ثيابهم وجمعوهم إلى السجن تحت مجلس كتخدا بك ، ثم أحضروا أيضاً المشاعلي لرمي أعناقهم في حوش الديوان واحداً بعد واحد ، حتى امتلأ من القتلى .

هذا ما حصل بالقلعة ، وأما أسفل المدينة فأنه عندما أغلق باب القلعة وسمع من بالرميلة صوت الرصاص وقعت الكرشة في الناس ، وهرب من كان واقفاً بالرميلة من الأجناد في انتظار الموكب. . . وعندما تحقق العسكر حصول الواقعة وقتل الأمراء انبثوا كالجراد المنتشر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم طالبين النهب والغنيمة. . . وأظهروا ما كان مخفياً في صدروهم وخصوصاً من التشفي في النساء فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدني امرأة ليتزوج بها فلا ترضى به وتعافه وتأنف قربه. . بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته في الحال. . وفر من نجا منهم وخرجوا إلى قبلي ، وبعضهم تزيا بزي نساء الفلاحين وخرج في ضمن إلى الشام وغيرها. . . فقتل في هذه الحادثة أكثر من ألف إنسان أمراء وأجناد ، وكشاف ومماليك. . فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلها. . .

المصادر والمراجع

١ ـ أنيس، محمد أحمد:

ـ مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني القاهرة ١٩٦٢

ـ حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية .

ـ المجلة التاريخية المصرية، المجلدان التاسع والعاشر (١٩٦٠ ـ ١٩٦٢) .

ـ الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة. المجلد الثامن عشر. الجزء الأول (أيار ١٩٥٦) .

٢ ـ الجبرتي، عبد الرحمن :

ـ عجائب الآثار في التراجم والآثار دار الجيل بيروت د. ت

ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس تحقيق أحمد زكي عطية، عبد المنعم عامرة، محمد فهمي، وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٦١ .

ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس تحقيق محمد عطا، سلسلة (اخترنا لك)، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٨ .

٣ ـ شيبوب، خليل:

ـ عبد الرحمن الجبرتي دار المعارف ـ القاهرة ١٩٤٨ .

٤ ـ السيد، عفاف لطفي:
ـ الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعلماء القاهرة، ترجمة أمين العيوطي مجلة الفكر المعاصر عدد ٥٦ القاهرة ١٩٦٩ .
ـ العلماء ودورهم في مصر مطالع القرن التاسع عشر، مجلة الاجتهاد العدد ٤ صيف ١٩٨٩ بيروت .

٥ ـ شكري، محمد فؤاد:
ـ مصر في مطلع القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٤٨ .

٦ ـ الشيال، جمال الدين:
ـ التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٥٨

٧ ـ الشرقاوي، محمود:
ـ دارسات في تاريخ الجبرتي ـ مصر في القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٥٥ .

٨ ـ عبد الكريم، أحمد عزت:
ـ عبد الرحمن الجبرت: دراسات وبحوث الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٩ ـ مصطفى، أحمد عبد الرحيم:
ـ عجائب الآثار في التراجم والآثار لعبد الرحمن الجبرتي مجلة تراث الإنسانية المجلد الرابع (تموز ١٩٦٦) .

١٠ ـ يحيى جلال:
ـ مصر الحديثة الهيئة العامة للكتاب د. ت .

فهرس الموضوعات